أبطال بُرقة يولَدون من جديد

أبطال بُرقة يولَدون من جديد

(رواية تسجيلية مستوحاة من سيرة المناضلَين أحمد ياسين الحمد ومحمود ياسين الحمد)

سميح مسعود

الطبعة العربيّة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

صورة الغلاف: شجرة زيتون في بيت لحم عمرها 5000 عام.

تصميم الغلاف: م. سجود العناسوة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-542-6

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022 /8 /3913)

306

مسعود، "محمد سميح" عبدالفتاح أحمد

أبطال برقة يولدون من جديد/ "محمد سميح" عبدالفتاح أحمد مسعود. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(202) ص

ر. إ: 3913/ 8/ 2022

الواصفات: اليوميات/ / المذكرات الشخصية/ / المناظلون/ / القصص الواقعية/ / فلسطين

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

سميح مسعود

أبطال بُرقة يولَدون من جديد

رواية تسجيلية مستوحاة من سيرة المناضلَين
القائد أحمد ياسين الحمد
وشقيقه المربي محمود ياسين الحمد

إهداء

إلى مناهل الإلهام في هذه الرواية الواقعية . .

رجال الثورة الفلسطينية الكبرى 1936

أولى الكلمات

بكلمات تفيض بالتَّأثر وصدق العاطفة، كتبتُ الجزء الأول من ثُلاثيَّتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور»، واستحضرتُ فيه على أوراقي تفاصيل أيام طفولتي في مسقط رأسي، حيفا، وفي قريتي بُرقة من قرى جبل النار، بكل ما فيها من انفعالات وعواطف جيَّاشة، طُفتُ فيها كلمةً بعد كلمةٍ على امتداد سطوري، في فقرات متتابعة، تكشف عن جوانب خفية منقوشة في ذاكرتي عن أيامي الماضية قبل النكبة والشتات.

أردت أن تظهر طفولتي واضحة للقرّاء، كي يتعرَّفوا عليها بكل حناياها ومداراتها، وما فيها من مشاهد عشتُها في ماضي أيامي بكلمات تجمع بين العمق والبساطة حتى لا تُنسى، وكي تبقى وشمًا في مآقي عيون أحفادي، من أجل أن يتعرَّفوا على جذورهم، ولا يضيعوا في منافي الاغتراب والشَّتات.

صدر الجزء الأول من بحثي عن الجذور بطبعتين: الأولى عن دار الفارابي البيروتية في يوم ربيعي من أيام آذار 2013، والثانية عن دار راية للنشر في حيفا في العام نفسه. وتم إشهار الكتاب بطبعته الأولى في حيفا، برعاية نادي حيفا الثقافي على إيقاع أنشودة «موطني موطني» الشائع ترتيلها في الداخل الفلسطيني، ردَّدها الجميع بعد الشاعر الكبير حنا «أبو

حنا»؛ الذي كان فاتحًا عينيه ويطوف بهما بلهفة في وجوه الجميع، وقال لي وهو يتحدث في حفل الإشهار عن الكتاب وهو محزون الفؤاد: «أنت أول طالب من طلبة مدرسة البرج يعود إلى حيفا بعد نصف قرن أو أكثر من بداية النكبة».

بعدها، اجتاحني إحساس بضرورة إشهار الكتاب بطبعته الثانية التي تمَّت في حيفا. بقيت بعض الوقت لا أحرك ساكنًا من أجل الإشهار، لكنَّ ناشري تسنّى له نيل الموافقة اللازمة لإشهاره في رام الله برعاية مركز خليل السكاكيني الثقافي، وقد أسهم في إشهاره مؤرخ حيفا، الدكتور جوني منصور، ومدير عام المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديموقراطية، ناصيف معلم. وثارت في قلبي قافلة من الانفعالات وقت الإشهار في هذا المركز؛ لأن السكاكيني كان في أيامه الخوالي من تمائم التعليم في فلسطين، ولا أحد ينسى من أبناء جيلي كتابه الشهير «راس روس» لتعليم اللغة العربية في الصف الأول الابتدائي، ويخالجني حتى الآن الإحساس الدائم بكلماته، وأحاول التَّمتع بخلطها في ذهني وحفظها في تلافيف خيالي.

وحسبي أن أذكر في هذا السياق، أنه نُشرت عن كتابي مقالات كثيرة في الداخل الفلسطيني وخارجه، وكتب عنه الناقد الفلسطيني الدكتور عبد المجيد جابر طميزة إضاءات نقدية نشرها في كتاب من الحجم الصغير، صدر عن دار الجندي للنشر والتوزيع بالقدس.

وما هي إلا فترة قصيرة بعد صدور كتابي حتى أدخلت الإعلامية الفلسطينية المعروفة هناء محاميد مشاهد عنّي في فيلم وثائقي صوَّرَتْه عن حيفا، ظهرتُ فيه في بيتي في عمّان، وبيت أهلي الذي ما زالت جدرانه المتصدعة بائنة للعيان في شارع الناصرة، على مقربة من جامع الاستقلال في وادي الصليب، المكدَّس ببيوت كثيرة متصدعة على وشك السقوط والانهيار، تبدو كأمثلة واضحة على آلام النكبة التي لحقت بأهل فلسطين.

والشاهد، أن نفسي ناءت بثقل كبير من المسؤولية بعد صدور كتابي الأول، وكان عليّ أن أزيل ذلك الثقل بالبحث عن الجذور ثانية في الداخل الفلسطيني. بسطت أوراقي أمامي وزرت جذلًا مستبشرًا عشرات القرى والمدن في منطقتَي المثلث والجليل، وفتحتُ أبواب البحث عن الجذور على مصراعَيها، وتلفتُّ إلى الماضي بعينيّ، وتعرَّفتُ على أعداد كبيرة من آل سيف الذين تنحدر أصولهم من بُرقة، والتقيتُ لأول مرة في حياتي بأبناء عم أمي من العائلة نفسها في قرية عبلين التي تقع على مقربة من مدينة شفا عمرو. وفتحت بابًا على مسيحيي بُرقة كانت قد أوصدته النكبة. وتعرفت منهم على عشرات العائلات المقيمة في حيفا والناصرة ورام الله، وتوثَّقت عُرى الصداقة مع ثلاثة من أبناء تلك العائلات هم: الإعلامي ناصيف معلم، والدكتور سهيل أسعد نائب رئيس بلدية حيفا

الأسبق، والناشط الوطني رائد نصر الله، وكلهم سَمِعتُهم وهم يفتخرون بجذورهم البرقاوية، الملفَّعة بضربات قلوبهم التي تعلو على جذوات نار عشق دائم لجذورهم الموغلة في أعماق أرض بُرقة.

وظلَّت أصداء بحثي عن الجذور في الداخل الفلسطيني تُسمع طيلة شهور متلاحقة، وأسرع لمدِّ يد العون لي أصدقاء لدفعي إلى الأمام في بحثي عن الجذور؛ في مقدمتهم: البروفيسور محمود يزبك، والدكتور جوني منصور، والدكتور حسين منصور، وحفيدة عمتي حسناء دراوشة، وزوجها عبد السلام دراوشة. وضعت يدي بأياديهم حتى غدا قلمي صلبًا، أجرُّهُ على أوراقي، ويتحكَّم بأنفاسي عندما تتقافز الكلمات في سطوري كلمة تلو أخرى.

وبعد بضعة أشهر، وأنا على هذا النحو من البحث الموصول عن الجذور، التقيت ببرقاويين استقرَّ بهمُ المقام في دبي وأبوظبي وأستراليا والولايات المتحدة وتشيكيا. واجتاحني شعورٌ بالراحة لتعرفي على طبيب حيفاوي يقيم في مدينة هيوستن الأمريكية، هو الدكتور جورج الحاج الذي عاش فترة صباه في حي وادي النسناس؛ أحد أحياء حيفا، في بيت من بيوت شارع حداد رقم 6، وأحسست في أحاديثه ملامح الآباء والأجداد، وطغيان ذكرياتهم على كل لحظة من لحظات حياته في مهجره البعيد.

وهكذا امتطيتُ متن الرياح وأنا أمنّي نفسي بإعداد جزء ثلاثيتي الثاني، وأخذ صدري يعلو ويهبط طيلة إعداده. وأخيرًا وُفِّقتُ بإصداره بطبعتين في عام 2015: الأولى عن دار الجندي للنشر والتوزيع بالقدس، والثانية عن «الآن ناشرون وموزعون» بعمّان في العام نفسه.

وتمّ إشهار الجزء الثاني في مقرّ رابطة الكتاب الأردنيين بعمّان، وأسهم في الإشهار الدكتور أيوب أبو دية، والشاعر والمترجم نزار سرطاوي. وتم إشهاره كذلك في قاعة مجلس قروي بُرقة، بإشراف الصديقين سامي دغلس وابن خالتي ضرار أبو عمر، ثم مرة أخرى في مركز محمود درويش بالناصرة، بإشراف البروفيسور محمود يزبك والدكتور جوني منصور والناشط الوطني رائد نصرالله. وحضرت الإشهار جمهرة كبيرة من العائلات التي تمتد جذورها في أعماق أرض بُرقة. تم اللقاء لأول مرة تحت سقف واحد، جلسوا في مقاعدهم من مختلف الأعمار رجالًا ونساءً وأطفالًا، رانت على وجوههم السعادة وتحركت شفاههم لحظة بعد لحظة وهم يردِّدون أنشودة «موطني موطني».

بعدها تتبعت أخبار بعض أبناء حيفا وبُرقة في بيروت والرباط وفاس ومكناس والولايات المتحدة وكندا، ثم التقيت بهم ولفتوا نظري بتمسُّكهم بجذورهم الفلسطينية التي تسري في عروقهم، وتغلي غليانًا كبيرًا في دمائهم، بالرغم من الغربة والشتات. وذات يوم من أيام العام

2016 أصدرتُ عنهم الجزء الثالث من ثلاثيتي، وأشهرته بلهفة عارمة في معرض بيروت للكتاب، بمساهمة المحامي ربيع حمزة، والأديب اللبناني علي سرور. وأعلنت في المعرض نفسه أنني لن أضيف أي جزء جديد إلى ثلاثيتي. وانعقد رأيي على ضرورة ترجمة كتبي الثلاثة إلى اللغة الإنجليزية، ولبى رغبتي صديقي المترجم والروائي والشاعر المعروف الدكتور بسام أبو غزالة بنفسه الرضية الطيبة، وتم إصدار الكتب الثلاثة باللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة، وهي متوفرة في موقع أمازون، وحصلت على رسائل كثيرة حين صدورها من أبناء حيفا وبُرقة في مهاجرهم البعيدة، عبَّروا فيها عن ارتباطهم بجذورهم الفلسطينية. وتوالت المفاجآت بتواصلي مع قريبة لي تقيم في بوسطن، وتكثَّف الحديث معها عبر الهاتف عن ماضي أهلها في بُرقة، وتواصلت مع سيدة من آل الحجة تعيش في البرازيل، كتبت لي كثيرًا عن جدّها الذي كان يحدِّثها عن غمار الحياة في قريته التي تتابعت فصولها في أيام صباه، قبل النكبة والرحيل.

أغلقت حينذاك البحث عن الجذور، وفجأة شعرت كأنني في حلم عندما فتحت عينيّ في الرياض على معطيات جديدة في يوم من أيام آخر شهر من عام 2021. رفعتُ رأسي ببطء، وهيمنَتْ على أوراقي سيرة القائد أحمد ياسين الحمد، وسيرة شقيقه أستاذي الشَّيخ محمود ياسين

الحمد، اللّذين اعتصما بحبِّ فلسطين حتّى آخر لحظة في حياتهما. لهما وحدَهما أُخصِّص بحثي الجديد عن الجذور في هذه الرواية، وسوف أُكحِّل عينيَّ بنسلهم من الأبناء والأحفاد حتّى أجمع منهم برويَّة وأناة ما أحتاجه من معلومات، بأطياف أحاديث وأحداثٍ بوهجٍ خاصٍّ لا نهاية له، يمتزج بتراب بُرقةَ بين الفَينة والفَينة، على امتداد هضابها وتلالها ومُغُرها وسهولها، وكلِّ ما فيها من شجرٍ وحجر.

المؤلف

في أوقات متقطعة من عام 2022

عمّان والرياض

(1)

في أحد الأيام التي مرت عليّ قبل خمس سنوات، وجَّهتُ خُطام مطيتي إلى مدنٍ كثيرة في المغرب، وقضيتُ فترة طويلة في جمع معلومات مهمة لروايتي «تطوان وحكايا أخرى» التي قررت كتابتها في مجال أدب الرحلة، التي ابتعد عنها الكُتّاب العرب منذ فترة طويلة. وبينما كنت مشغولًا باقتفاء آثار صديق والدي الحيفاوي رشيد الإدريسي، رنّ هاتفي الجوال، وسمعت صوت ابني فادي على الطرف الآخر من الخط يأتيني من مدينة شيكاغو التي يعمل فيها، ويقيم في ضاحية أوك بارك؛ إحدى ضواحيها الجميلة المجلَّلة بالحدائق الغناء.

وبعد حديثه عن مستجدات عمله في جامعة إلينوي، وعن آخر أخبار أسرته، خيّم الصمت على الطرف الآخر من الخط، ثم أعاد الاتصال ثانية، وسألته:

- هل من جديد بسببه تجشِّم نفسك عناء الاتصال عبر المحيطات البعيدة؟
- أجل لدي خبر جديد يستحوذ عليّ ويشدُّني، يتعلَّق بتوقيعي عقدَ عمل في مستشفى حكومي معروف بالرياض، وافقت عليه لكي أعود إلى بيئتي العربية بعد طول غياب.

اجتاحني إحساس دافئ بالراحة لما سمعتُه من ابني، وبادرته قائلًا:

- أبارك لك هذه الخطوة؛ لأنها ستتيح الفرصة لأولادك كي يتعلَّموا لغتنا العربية الجميلة. لا تنس أن اللغة في حياة أي كائن تبدو في باطنها وظاهرها من أهم أركان الهوية، ويتعمق أثرها في أغوار العلاقات الإنسانيّة بين بني البشر، يعبرون بها عن أفكارهم وأحاسيسهم في مجريات الحياة.

كان تأثير البعد قويًّا على المكالمة الهاتفية، تحوَّل الصوت إلى خشخشة غير مألوفة، وفي لحظة خيَّم الصمت على هاتفي الجوال، ثم توقَّف عن الكلام، في وقت كنت فيه على مقربة من أعتاب جامعة القرويين التي لم أُفلتْ من سحرها بوصفها أقدم جامعة في العالم. بقيت فيها بعض الوقت وأنا أحلم بمكالمة ابني تدغدغني كلماته، وتنقلني إلى أبعاد غير مألوفة تتمطّى في فضاءات واسعة ما بين فاس وشيكاغو والرياض.

بعد وقت قصيرة، أنهيت زيارتي للمغرب وعدتُ إلى عمّان، وفي الوقت نفسه غادر ابني شيكاغو، واستقرَّ بالرياض طبيبَ أسنان استشاريًّا في جراحة اللثة وزراعة الأسنان. وإلى جانب عمله هذا، عُيّن بعد فترة من الوقت مديرًا للدراسات العليا في مجال تخصصه في إحدى الجامعات السعودية، كما بدأ أولاده تعلُّمَ اللغة العربية بتعبيراتها الخاصة المتميزة، وبالتالي طابت لهم الحياة في نهاية المطاف في بيئتهم العربية الجديدة.

وفي يوم أخبرني ابني أنّه نسج صداقة مع زميل له، هو الدكتور الاستشاري عصام البرادعي، ويريد مني أن أهدي والده سليم البرادعي كتابي «على دروب الأندلس»، وهو من أدب الرحلة. وفي الحال أرسلتُ له نسخة من الكتاب، وأخبرني ابني أنّ والد صديقه أُعجب بها. كانت كلماته معدودة لكنّها حملت دلالات مهمة يزهو بها الكُتّاب.

على أثر هذا الحديث سارع ابني بتقديم دعوة لي ولأمه لزيارته وأسرته بالرياض في آخر شهر من عام 2021، حتى نتجنَّب برد الشتاء في عمّان. استجبت لدعوته، وعندما آن الأوان للسفر، اتَّبعتُ وزوجتي كلّ الإجراءات اللازمة للسفر في زمن كورونا. ولأنني من الرُّحَّل الذين يغويهم السفر، وضعت لنفسي برنامجا للكتابة، حددت به ضرورة إنهاء روايتي الجديدة «المنسي»، عن بطل عربي كان قائدًا لحامية القدس في عام 1948.

مضت الأيام كعادتها كلمح البصر، وسرعان ما شددتُ الرحال مع زوجتي واتجهنا إلى مطار عمّان للمغادرة، وبعد إنهاء الإجراءات اللازمة، كانت الطائرة السعودية متهيئة للإقلاع. صعدنا إليها، وجلسنا في المقعدين المخصَّصين لنا، وبعد برهة قصيرة غرقت زوجتي بسبات عميق وبقيت يقظًا طيلة الرحلة.

وبينما كانت الطائرة تعلو في الفضاء، استعدت بمتعة كبيرة زيارات عمل كثيرة قمت بها في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، عندما

عملت خبيرًا اقتصاديًّا في منظمة «الأوابك» العربية التي تتخذ من الكويت حتى الآن مقرًّا لها. تجسدت تلك الزيارات أمام ناظري، وتنقلت فيها من مشهد إلى آخر، ولا تزال ذاكرتي تحتفظ بالكثير من أهم تفاصيلها.

استحوذت عليّ ذكريات دارت في رأسي سريعة متدفقة، حول ندوات ومؤتمرات كثيرة عُقدت في الرياض، تجولت خلال انعقادها في مدن كثيرة. تماوجت أمام ناظري صور منها بفحوى أحداث وبرامج كثيرة، لامست فيها سنابل القمح المزروعة في الرمال، ومجريات رحلة رسمية قمتُ بها على متن طائرة صغيرة سابقت الرياح فوق صحراء الربع الخالي.

وأعدتُ على امتداد ذكرياتي رسم وجوه ممّن تعرفت عليهم أثناء زياراتي للرياض. تناهى إلى سمعي صدى أصواتهم وأحاديثهم، ومن بينهم شقَّ طريقه إلى مخيلتي الشاعر السعودي الكبير غازي القصيبي. نظرت إليه وأنا مشدود الأجفان، وطُفت معه على امتداد أيامه، لا سيما الأيام التي كان فيها وزيرًا للصناعة والثروة المعدنية، واسترجعت قصائد عديدة له حرفًا حرفًا، خاصة قصائده التي نظمها عندما كان سفيرًا لبلاده في لندن. وتمتعت بمخيلة عامرة عن خبايا لقاء به في مكتبة عربية تقع في شارع «وستبورن جروف» وسط العاصمة البريطانية. وقد أخبرني حينذاك أن نزارًا؛ أي نزار قباني يعاني كثيرًا من المرض، وقلتُ له أبيات عدة من شعري بصوت هادئ:

«من قالَ إن الشعر يُنسى ويموتُ الشعراء
من قال إن الطائرَ الدوري يتعبُهُ الغناء
ومزاريب تشرين لا تهوى الشتاء
من قال يا سيد الشعراء
إن الشعر لا يُعلَّق كالجواهر فوق أعناق النساء».

أحسست بأنفاسه، وهو يسألني: «من قال إن الشعر يَنسى الشُهداء؟»..

اِتّسع مدى الذكريات في تلك اللحظات، والطائرة تتمايل بفعل هزَّات خفيفة على امتداد الفضاء، وأنا أواصل التأمل، وأنصت لصدى قصيدة مهمَّة نشرها الشاعر الكبير على الصفحة الأولى من صحيفة الحياة اللندنية بعنوان «الشهداء»، يُثني فيها على الفدائية الفلسطينية آيات الأخرس، ومطلعها:

«يشهد الله أنكم شهداء يشهد الأنبياء والأولياء
متُّم كي تعز كلمة ربي في ربوع أعزَّها الإسراء
انتحرتم؟ نحنُ الذين انتحرنا بحياة.. أمواتها الأحياء
أيها القوم! نحن متنا.. فهيا نستمع ما يقول فينا الرثاء...».

تذكرتُ أنّ القصيدة أثارت عاصفة سياسية، وضجة كبرى في حينها، وقد منحته فلسطين بسببها لقب شاعر «العودة».

لاحقتني قصيدته، في الدقائق الأخيرة من رحلتي من عمّان إلى الرياض، واستحضرت بها بلدي ببؤر لاقطة، تعكس أرضها وسماءها

وبحرها وترابها وكلّ ما فيها. وفي لحظة توقفت عن متابعة ذكرى الشاعر الكبير في وقت حطت به الطائرة في مطار الرياض الدولي. وقد أسعدني أنّ درجة الحرارة كانت مرتفعة في الخارج، وأنّ الشمس تسطع في وسط السماء، تبثُّ موجات دفءٍ تُبهج النفس، خاصة لشخص مثلي يهربُ دومًا من أجواء عمّان الشتوية الباردة.

أتممت مع زوجتي إجراءات الدخول، ثم تناولنا أمتعتنا إلى باب الخروج الذي يقف أمامه المستقبلون. وبينما كنت أتابع النظر نحو الجموع المحتشدة في صالة انتظار المسافرين، هزَّني صوت أحفادي الثلاثة وهم ينادون عليّ وعلى جدتهم بنشوة زائدة. وبعد بضع دقائق هرعوا نحونا وتعانقنا بحرارة عند اللقاء. ضممناهم مع والدهم وأمهم، ثم أجلتُ البصر بينهم قائلًا:

«علينا التحدث فقط بلغتنا العربية».

وجدتُ أن أكبرهم، ليثًا، وعمره ثلاث عشرة سنة يمكنه التحدث باللغة العربية دون عناء. وأنَّ نديمًا الذي عمره سبع سنوات يُجبَر بين الحين والحين على استخدام اللغة الإنجليزية، وأن أختهما الصغيرة ليانا ذات السنوات الخمس ما زالت تعتمد كثيرًا على اللغة الإنجليزية، لكنها تحفظ الكلمات العربية بسهولة، ويمكنها الغناء باللغة العربية عندما تُعطى الوقت الكافي للتدرب على الأغاني العربية.

بعدئذٍ ركبنا مع ابني في سيارته وانطلقنا باتجاه منزله، واصلنا الطريق في رحاب مدينة واسعة غير التي عرفتها من قبل، فيها بنايات كثيرة متعددة الطبقات على مدّ البصر، تحيطها أحزمة من النخيل والأشجار الخضراء، وتشرف على مناظر بانورامية رائعة لمدينة عصرية من كبريات الحواضر العربية. وقد اجتاحني شعورٌ بالراحة لأنّ ابني اهتم بإعطاء لمحة تعريفية بالأحياء التي نمرّ بها، وكل ما نراه حولنا على طرفي الطريق، بما في ذلك المستشفى الذي يعمل فيه، وهالتني ضخامته وانتشار أقسامه على مساحة واسعة من المناطق المتجاورة، وهالني كذلك عدد المجمّعات السكنية التابعة له، بما فيها من منازل مستقلة، تحفها الحدائق وجميع مستلزمات الأنشطة الرياضية.

بعد فترة قصيرة اقتربنا من المجمّع السكني الذي تسكن فيه عائلة ابني، وبينما كنا نجتاز بوابته الرئيسية، وجدته بحلة عصرية تبهر الأنظار، فيه تكوينات معمارية مزدانة بحدائق تعلو فيها أشجار النخيل.

واصلنا طريقنا في داخل المجمّع، وسرعان ما انحرفنا يسارًا، وبعد لحظات انحرفنا يمينًا، وتوقَّفْنا أمام بيت ابني. بعدها ترجلنا من السيارة، ودخلنا البيت، ثم عَرَّفَنا الأحفاد على معالمه الداخلية.

(2)

اليوم التالي كان يوم جمعة، يوم العطلة الأسبوعي لأحفادي. أفقت مبكرًا، وتمتعت بالجلوس في شرفة تلفعها أشعة الشمس في الصباح حتى فترة الظهيرة، بعد ذلك أفاق الجميع، ومع مرور الوقت تناولنا طعام الإفطار، ثم أغراني أحفادي بأن يعرّفوني على مجمع سكنهم، ومجمع آخر قديم بقربهم. تأبط كبيرهم ذراعي ومشيت معه على الأقدام بخطى بطيئة، وسار نديم وليانا على مقربة منّا، وراق لهم أن أحدثهم عن نشاطي الرياضي في مجال السباحة ولعبة التنس الأرضي في أيام شبابي.

تعمدتُ التوسع في حديثي عن السباحة على مقربة من الشاطئ الأزرق في حيفا، قاطعوني بطرح أسئلة كثيرة، ورشقوني بنظرات إعجاب متواصلة، تأكدتُ منها أنّ كلماتي أثارت هيجان عاطفتهم لمعرفة المزيد من المعلومات عن مسقط رأسي حيفا، وقرية أهلي وأجدادي بُرقة.

حدقتُ في الفضاء كأنني أحاول أن أتذكر شيئًا، وردّدت من صميم قلبي معلومات في أوج احتدام عاطفتي، وبينت لهم أن حيفا ميناء في شمال فلسطين، تمتد صعودًا من البحر حتى جبل يُسمّى جبل الكرمل، على سفحه وفوق قمته غلالة أشجار خضراء باسقة تزيّن المكان، منها شجر الصنوبر والسرو والسنديان والبلوط والخروب التي تلامس أردنة

الغيوم في فصل الشتاء. كنت أتجوَّل فيها بين الحين والحين في صغري برفقة أمي، وأراها في عينيّ أكثر جمالًا من أجمل حدائق الدنيا الشهيرة.

وفي إطلالة أخرى على حيفا لفتُّ نظر أحفادي إلى بحرها، الذي تتراقص فيه أمواجه بحلقات متتابعة، تأتي من بعيد وتضرب صخور الشاطئ بقوة ويعلو رذاذها ويتَّسع مداه في مدارات كثيرة. كان يتجسد دومًا أمام ناظريّ وأنا أتنقَّل في حيفا «التحتة» من حي إلى آخر. ولا تزال ذاكرتي تحتفظ حتى الآن بمشاهد رذاذ أمواج بحر حيفا، أسترجعه في منافي الشتات، وأعيد به تشكيل مشاهد كثيرة من أيامي الباكرة.

كان أحفادي الثلاثة ينظرون لي وهم في ذهول، وأعرف أنهم لم يفهموا كل ما قلته لهم، ووعدتهم أن أزوِّدهم لاحقًا بخلاصة موجزة عن مسقط رأسي مدينة حيفا التي لا تغيب عنّي لحظة، وأفتح عينيّ عليها دومًا أينما أكون.

بعدها سألني الصغار عن بُرقة، واستطردت بالحديث عنها بنشوة في تفاصيل مسهبة بيَّنتُ فيها أنها قرية كبيرة من قرى جبل النار، مزنَّرة بالسهول والهضاب وأشجار اللوز والزيتون والتين وغيرها من الأشجار الأخرى، ولها تاريخ وطني مميز؛ فقد انضم أغلب سكانها لثورة 1936، وينتمي لها قائد عام الثورة عبد الرحيم الحاج محمد سيف (أبو كمال)، واشتهر من أبنائها قائد ثائر كبير في تلك الثورة، هو أحمد ياسين الحمد، الذي دوَّخ القوات البريطانية، وأنزل بها هو ورفاقه خسائرَ كثيرة. وقد

تشابكت حياته كالنسيج من الناحية الشخصية مع تراب بُرقة، وظل وفيًّا لها حتى آخر لحظة في حياته. أتذكر سيرته العطرة في أيامي الحالية، وسيرة أستاذي شقيقه الشيخ محمود ياسين الحمد، وأنا في الهزيع الأخير من عمري، مقوَّس الظهر، وعكازي يدفعني في المشي طوال أيامي.

لمعت عينا ليانا ببريق مميز، وسألتني:

- ماذا عن الطيور البرية التي تعيش في فضاء بُرقة؟
- تعيش فيها أنواع كثيرة من الطيور بأحجامها وألوانها المميزة، تغرد على مدى الأيام، وتتقافز بين أغصان الأشجار، ويعجبني منها بشكل خاص عصفور الشمس الفلسطيني الصغير، والعصفور الدُّوري لأن لصوته بحة تغريني في الصباح عند انبلاج فجر كلّ يوم جديد.

ثرثرت معهم كثيرًا، ثم رجعت برفقتهم إلى بيتهم بخطى متثاقلة، والتقيت بابني، وقد افترَّ ثغره عن ابتسامة عريضة، وشعرتُ أنه يريد بدء الحديث معي بأمر ما، وبعد بضع دقائق رفع رأسه:

- سيمنحنا الأطفال وقتًا طيبًا لحضور حفل خاص بهم، سيُنَظَّم في ساحة مجمعٍ قريبٍ منّا، يبدأ في عصر اليوم، وتُقدَّم فيه برامج ألعاب ترفيهية مسلية لهم.

أمضينا الوقت المتبقي، لبدء الحفل بالجلوس في شرفة تلفعها شمس الرياض، وتابعنا أخبار البرد والثلوج في عمّان عبر وسائل الاتصال

الاجتماعي، واندفعت الكلمات من فمي وأنا أقارن ما بين فصلي الشتاء والربيع.

تواصل هذا المشهد بعض الوقت، ثم دعانا ابني للجلوس في سيارته، وبعدها انطلق بها في داخل المجمّع، ثم استدار واتجه إلى الشارع الرئيسي، واجتازه حتى نهايته ثم اتجه يمينًا نحو مكان حفل الأطفال، بعدها ترجلنا ودخلنا المكان المقصود، وأخذ أحفادي يختارون الألعاب التي تهمّهم، وأهمها لعبة تسلق الجبال التي يتسلق الأطفال خلالها جدارًا عاليًا بمساعدة حبل يُقمَط على وسطهم. وهي لعبة يعشقونها، ويطلقون ضحكًا عاليًا بهياج واضح عندما يصعدون إلى أعلى الجدار المبني هيكله على شكل جبل طويل.

وبينما كنت أسمع الموسيقى وأغاني فيروز ومحمد عبده، التي كانت تصدح من مكبرات صوت عديدة موزعة في مكان الاحتفال، تدفقت في تلك اللحظة أفكاري حول الرياض الجديدة. أغمضت عينيَّ وزدت طربًا بما أسمع، ثم فرقعت أصابعي في فرح، وقلتُ في أعماقي من الجميل أن تُفتح أبواب الحداثة والانفتاح في المملكة في كلّ المجالات. وفي هذا السياق، لفت نظري وجود الأشجار الخاصة بالاحتفال بعيد الميلاد، التي تُعلَّق عليها عادة أدوات الزينة المختلفة احتفاءً بتلك المناسبة، ورأيت بجانبها قبعات بابا نويل المعروفة في كلّ أرجاء العالم، التي هي وأشجار الكريسماس تظهر لأول مرة في تاريخ المملكة.

كنت أجلس وحدي في زاوية مطلة على مكان الحفل، ثم جاء ابني واحتلَّ مقعدًا بجانبي وتجاذبنا أطراف الحديث عن الحفل، وكلّ ما يدور حولنا من أنشطة تُعبِّر بأسلوب عصري عن قدر من الاهتمام بمظاهر الاحتفال بعيد الميلاد.

أسند ابني رأسه إلى يده، وأخذ يحدثني عن صديقه عصام البرادعي الذي ذكرته من قبل، وبيَّن لي أنّ والده سليم البرادعي قد أُعجب بكتابي «على دروب الأندلس»، وأسعده كثيرًا وصفي لمدن الأندلس التي زرتها، وخاصة مدينة رُندة التي تعلو فوق قمم الجبال العالية، وتظلّلها طيلة أيامها أردنة الغيوم الكثيفة. وقد ذَكَّرته بشاعرها الأندلسي الكبير أبي البقاء الرُّندي، وسَعِدَ عندما علم أنّ مجلس بلدية المدينة قد كرَّمه بتسمية أهم ساحة في وسطها باسمه، وعرَّفوا زوار المدينة به في نشراتها السياحية، وسجلوا فيها مطلع قصيدته النونية الشهيرة التي رثى بها الأندلس:

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ فلا يُغَرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

نظرتُ لابني نظرة تمور بالسعادة:

- أتمنى أن أراه وأحدّثه عن حكايا أندلسية لم أذكرها في الكتاب، مزينة بأكاليل ورود غرناطية، تفيض بالتأثر وصدق العاطفة، قد أُصدرها في كتاب جديد في يوم قادم.

تنهدتُ في حرقة، وتساءلت في أعماقي بنبرة حزينة: «هل ستمكنني الأمراض من العيش حتى أكتب كتاب جديد عن الأندلس؟».

رانت على وجه ابني علامة استفهام، وقال لي وهو ينظر بطرف عينه إلى أولاده:

- أشعر أنك تتحدث إلى نفسك دون رغبة منك بإسماعي ما ترددده من كلام.

بدوت كأنني أدافع عن نفسي:

- هذا ما أفعله أحيانًا، عندما أشعر بدهشة من رأي قراء رواياتي بما أكتبه فيها من تفاصيل، خاصة من الذين يُحسنون صبّ الكلمات بعيدًا عن كيل المديح الممزوج بالمبالغات.

وأيًّا كان، فقد قلت لابني في نهاية الأمر بأنه يعتلج في نفسي توقٌ للتحدث مع سليم البرادعي هاتفيًّا، لأنني لا أحبّذ اللقاءات مع الآخرين في زمن كورونا؛ لأخذ الحيطة من الوباء الذي ينتشر بين كبار السن كانتشار الرياح العاتية في أيام الشتاء، وأخشى أن أكون في أيام سني المتقدمة من ضحايا الوباء اللعين.

فقال لي ابني بنبرة حزينة:

- فارقنا العمّ سليم، رحل عن دنيانا قبل فترة قصيرة من الزمن، عليه رحمة الله الواسعة. كان يحلم طيلة عمره بالعودة إلى صفد؛ مدينته التي تنحدر أصوله من ترابها، وهُجّر منها مع بدء أيام النكبة، وكان يشعر طوال حياته بعميق الشوق إليها.

ما لبثت أنْ أحسستُ بحزن شديد، في وقت كانت فيه الشمس تبتعد عن ناظري شيئًا فشيئًا. وقلتُ في نفسي إنّ نهايتي ستدعو للشفقة، وكانت عيناي تعبّران عن نظرة سوداوية وأنا أتابع مكان نهايتي في مكان لا أعرفه على الكرة الأرضية.

(3)

صمتنا -نحن الاثنين- معًا، ثم ترحمتُ على قارئي الصفدي، وبعد بضع دقائق خاض ابني غمار معلومات عن مسيرة حياته، وأكد لي أنه وصل إلى السعودية مبكرًا وهو في ريعان شبابه، وأتقن بجدارة كلّ ما قام به من عمل، ونال الجنسية السعودية، هو وكل أفراد أسرته، وعاش حياته معززًا مكرمًا حتى آخر لحظة في حياته.

توقف قليلًا عن الحديث، ثم واصل السرد، واسترعى انتباهي ما ذكره عن دعوة سيوجهها عصامٌ لي لتناول العشاء في بيته، والتعرف على كل أفراد أسرته، إخوته وأخواته وزوجته وأولاده وأحفاده، وأقضي معهم أمسية يوم الخميس القادم، أحدثهم فيها عن صفد التي زرتها مؤخرا، مستخدمًا جواز سفري الكندي الذي يُسهّل عليّ زيارة بُرقة وحيفا والناصرة وإكسال وعبلين، لزيارة ما تبقى من أقاربي في ربوع أرضنا المحتلة.

قدرتُ الدعوة أيّما تقدير، وطلبت من ابني أن يعتذر لصديقه، لأنني أتحاشى التجمعات في زمن كورونا، وفي الحال اتصل به ابني عبر هاتفه الجوال، ولم أسمع ما يقوله عصام على الطرف الآخر من خط الهاتف، طال حديثهما، ثم فجأة قال له ابني:

- سنلبّي دعوتك، سأحضر في الوقت المحدّد مع والديّ وزوجتي، ويصعب حضور أولادي لأنهم يأوون إلى فراشهم مبكرًا.

ما لبث أنْ توقف الحديث مع ابني وصديقه عصام، وراح يبرر لي سبب قبوله الدعوة بأنّ جميع الناس في الرياض قد أخذوا كلّ المطاعيم اللازمة للحفاظ على أنفسهم من وباء كورونا. وذكرني أنني وأمه أخذنا المطاعيم نفسها في عمّان، وأنه لا خوف علينا من مخالطة الأصدقاء في بيوتهم، ويسود الاعتقاد الآن بأنّ الجميع بمنأى عن خطر الإصابة بكورونا.

قلت لابني:

- إنّها مجرد فرضية والحذر مطلوب في كل الأحوال.

فأجابني:

- استخدام كمامات الوجه المعتمدة، يتلاءم مع متطلبات السلامة واستبعاد الإصابة بالوباء اللعين.

ضحكنا بصوتٍ عالٍ، واستجبت لتبريرات ابني التي كرّرها في حديثه، ثم توجَّب علينا الاستعداد للرجوع إلى البيت، وحال وصول الأحفاد وجدتهم وأمهم، أخبرهم ابني بحماس واضح عن قبولي دعوة صديقه عصام لتناول العشاء في بيته في مساء يوم الخميس القادم. وقد رحبت زوجتي وزوجة ابني بالدعوة. وفي الوقت نفسه لاحظت مسحة من

السعادة تبدو على وجوه أحفادي، ولم يخامرني أيّما شكّ في أنّ الألعاب التي لعبوها هي سبب سعادتهم، وفي الحال سألت كبيرهم:

- هل الألعاب المتوفرة هنا تشبه ألعاب شيكاغو؟

فبادرني بالإجابة قائلًا:

- ممارسة الألعاب هنا أفضل لأنها تتم في أجواءٍ عربية، ونتحدث مع بقية الأطفال الذين يمارسون معنا اللعب بلغتنا العربية.

كان يتَطلع بين الفينة والفينة في لهفة بالغة، في وجوه الأطفال الذين يمرون حولنا، ثم قال:

- سوف يزيد فرح الأطفال عندما يتم افتتاح حديقة الملك سلمان في الفترة القادمة.

لفّ أصابعه على هاتفه الجوال وأظهر ما كتبه غوغل عن الحديقة، تأملت مليًّا ما هو مكتوب ووجدتها ستكون واحدة من أكبر حدائق المدن في العالم. استبدّ بي التعجب وأنا أقرأ الأرقام الخاصة بمساحتها التي تزيد على ستة عشر كيلومترًا مربعًا، في إطار محيط أرضي مليء بالمظاهر الطبيعية الخلابة، ومجموعة كبيرة من الأنشطة الفنية والثقافية، بما في ذلك مسرح وطني كبير، إضافة إلى مسارات دائرية طويلة للمشاة، وخيارات رياضية وترفيهية متنوعة، وحدائق خضراء، فيها أكثر من مليون شجرة من الأشجار الباسقة بأنواعها المختلفة.

اعترتني الدهشة لدى قراءتي هذه الكلمات عن الحديقة، وغرقتُ في خضم متلاطم من الأفكار، وخيَّم عليَّ الصمت لحظة، وبدَوْت مأخوذًا بما قرأت، ولشدة انفعالي قرأت مرة ثانية ما سجَّله غوغل عن الحديقة، أردت أن أسجل كل ما قرأته في ذاكرتي حتى لا أنسى.

أعطيت حفيدي هاتفه الجوال، وبينما كنت أستمع إلى خرير ماء يجري في قناة قريبة منا، قلتُ:

- إنّني أشعر بالسعادة لأنّ أحفادي سيستمتعون بأنشطة الحديقة، ويتمتعون بطيب الإقامة في الرياض.

تبادلنا كلنا النظرات، وارتسمت على شفتي حفيدتي ابتسامة رضا ورددت:

- سنأتي كلنا معًا عندما يتم افتتاح الحديقة.

صور كثيرة تتابعت على شاشة مخيلتي، وهمست بصوت غير مسموع: «آمل أن أكون معكم إذا طال بيَ العمر».

صمتُّ دون أن أضيف على ما قلته شيئًا، ثم اتجهنا كلنا خارج مكان الحفل، ثم اقتربنا من السيارة التي باتت قاب قوسين أو أدنى منا، صعدنا إليها وتلا ذلك انطلاقنا نحو البيت. أخيرًا وصلنا وأصرت ليانا أن تروي لها جدتها حكاية قبل النوم، من حكايا الأطفال بنبرة فرحة، فيها صورٌ عن حياة الأطفال في زمن مضى في بلادنا. وبعد التفكير بالأمر مليًّا، استلقت الحفيدة في سريرها، ورضخت الجدة لطلبها دون تردد، وأخذت تتلو

عليها حكايا قصيرة جمعتها في صغرها من أمها، تتشابه في مضمونها مع حكايا الأطفال المستمدَّة من الموروث الشعبي الفلسطيني، ولا تتباين بأيّ حال من الأحوال مع الحكايا التي كانت ترويها الجدّات للأطفال الصغار في بُرقة.

كان صوت الجدة دافئًا، ساعد حفيدتها ليانا على التثاؤب والشعور بالنعاس، ولم يكن بوسعها سوى إغلاق جفنيها، والاستجابة لتجرّع حصتها اليومية من النوم.

***

توالت الأيام في الرياض، كنت في كلّ صباح أجلس في الشرفة المشمسة نفسها، أسند ظهري إلى مقعد من مقاعد الحدائق، وأدفن وجهي في حاسوبي، ثم أنخرط بكتابة آخر صفحات من روايتي الجديدة «صنهاجي في غرناطة» التي أثبتُّ فيها أنّ الأمازيغ/ البربر كلهم من العرب العاربة. وشعرت فيها بارتياح كبير عندما أكد لي أحد الإسبان أنّ أجداده الذين حكموا غرناطة في عهد حكام الطوائف، من الصناهجة، وتمكَّنت من إقناعه بأنهم من العرب العاربة. قدمت له أدلتي من واقع آثارهم التراثية، وقد شعَّ الفرح من عينيه، وشعرت بعطف نحوه لأنّ دمي العربي يجري في عروقه.

ذات يوم، بينما كانت تتراقص أمامي آخر الكلمات على آخر صفحة من روايتي الجديدة، قطع هاتفي الجوال حبل الصمت، وما لبثت أن

وضعته قرب أذني، وسمعت صوت صديقي جوني منصور الملقب بمؤرخ حيفا، انفجرت بضحكة عالية مرحِّبًا به، وقال لي إن نظراته في هذه اللحظة تلتقي بموج حيفا، وإنه يذرع الأرض القريبة من الشاطئ الأزرق جيئة وذهابا، ويتمنى لو أنني برفقته لكي أمتِّع نفسي بمشاهد ساحرة قلّ مثيلها في العالم أجمع.

بعد لحظات نحا منحى آخر في حديثه، وقال بلهجة جادة إن ثمة طالبة جامعية يهمه أمرها، تريد أن تحضِّر دراسة علمية عن ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور»، ويهمُّها بشكل خاص معرفة النتائج المثيرة التي حصلت عليها من بحثي الميداني في الداخل الفلسطيني. ثم طلب مني برقةٍ متناهية أن أسجل لها على أوراقي أهم النتائج التي توصَّلت إليها، ولم أسجلها في كتبي الثلاثة، ولا يستطيع القارِئ أن يلاحظها بين السطور عندما يلقي نظره عليها.

خيَّم عليّ الصمت بشكل عفوي، ثم تابع صديقي الضغط على مخارج حروفه للتأكيد على مطالب الطالبة الحيفاوية. بعدها توقف عن الكلام فجأة، وشعرت أنه غير راضٍ عن عدم متابعة الكلام، وبرّر ذلك بأنّ السماء في تلك اللحظة أخذت ترعد وتبرق في موجات متتالية، ثم أخذت تمطر بغزارة، ويزداد المطر شيئًا فشيئًا، وعليه مغادرة الشاطئ والرجوع إلى بيته في الطرف الآخر للشاطئ الأزرق، الذي يمتدُّ حول حيفا على اتساع مساحة واسعة.

ودّعني صديقي ووعدته أن أجهّز كلّ ما طلبه مني، وأن أرسله له في طيات الواتساب بعد يومين اثنين على الأكثر. بعدها أقفل خط المسنجر، ومن ثم ثبتُّ عينَيَّ على لوحة حروف الحاسوب، وانثالت كلماتي حول نتائج بحثي عن الجذور، وأخذت، بصفِّها كلمة تلو كلمة، في نسيج طبيعي بدون مساحيق المبالغة التي يرتكز عليها بعض الكُتّاب، وهم يخترقون ستائر الحقيقة التي تتلاشى صورها على أوراقهم.

وفور أن لمحت السطور الأخيرة التي سجلتها طلبتُ من الطالبة الجامعية في نهاية مداخلتي، أن تزور بعض أقاربي الذين تعرفت عليهم لأول مرة في حياتي خلال بحثي عن الجذور في الداخل الفلسطيني، حتى تمسك بكل أطراف حقيقة ما قمت به، وتتعرف على كل أثر لمتابعة جذوري الغائرة في التراب الفلسطيني.

ثبتُّ رأسي فوق أعلى المقعد، واضعًا رجلًا فوق رجلٍ، وأنا جالس في الشرفة المشمسة في الجهة الغربية من بيت ابني. سادت فترة قصيرة من الصمت، ولاحظت عصفورًا كبيرا أسود اللون، بدا كمن يريد أن يصرخ فوق سعف النخلة القريبة مني. صوَّبت إليه نظرة فاحصة، وفجأة أخذ يغني بصوت هادِئ، وحرَّك صوته في أعماقي شوقًا لقريتين تعرفت فيهما على مجموعة كبيرة من أهلي أثناء بحثي عن الجذور في عام 2015.

أعاد على مسمعي أغانيه مرات عدَّة ثم طار، وفي الحال تحولت نظراتي إلى حروف حاسوبي، وأوصيت الطالبة الحيفاوية أن تزور قرية عبلين

لكي تتعرف على أبناء أخوالي من آل عودة سيف، وتستعيد مشهدَ تعرُّفي عليهم من أحاديثهم؛ عن تلك اللحظات التي لا تُنسى، كما طلبتُ منها أن تزور قرية دير حنا التي تتربَّع فوق هضبة عالية تطل على سهل البطوف، وتتعرف فيها على أبناء عمومتي من آل حسين، وتطلب منهم أن يصفوا لها كيف انسابت الكلمات من فمي، حين التقيت بهم لأول مرة في حياتي وكنت آنذاك في السابعة والسبعين من عمري.

أرسلتُ نسخة مما كتبتُه إلى صديقي المؤرخ الكبير، ونسخة أخرى إلى طالبته الحيفاوية، بعدها نهضت وهيأت نفسي للسير في شارع طويل حول بيت ابني، وأحسست بشعور جميل لأنني أوفيت بوعدي لصديقي، ولأن طالبة حيفاوية وجدت دلائلَ تشير إلى أهمية بحثي عن الجذور في أرض بلادي.

(4)

أفقتُ مبكرا في صباح يوم دافِئ، في وقت كانت فيه الثلوج تغمر عمّان. جلست في الشرفة المعهودة، وضغطتُ يدي على صدغي وتمنيت لو أنّ أصدقائي من أهل عمّان معي في الرياض، لأرتشف القهوة معهم، بدلًا من ارتشافها في مقهى دمتري، أحد مقاهي «الصويفية فيلج» الذي يطيب لي الجلوس في شرفته مع الأصدقاء.

بعدها وصل ابني ومعه فنجان قهوته، ابتلع رشفات منه ثم قال:

- تمرُّ الأيام بسرعة البرق، واليوم هو يوم الخميس، وغدًا تبدأ عطلة الأسبوع كالمعتاد.

رفعت حاجبيّ مندهشًا:

- مساء اليوم سوف نلبي دعوة صديقك عصام.

تطلعَ إليّ مبتسمًا:

- أنت لا تنسى المواعيد، كنت دومًا تذكّرني بمواعيدي المدرسية عندما كنتُ يافعًا في سنواتي المدرسية الأولى.

واصلتُ الجلوس معه، قبل موعد ذهابه لأداء واجباته الوظيفية في المستشفى، وسرعان ما أجرى مكالمات عديدة بهاتفه الجوال، ثم تناول إفطاره، وبينما كان يستعد للخروج، رفعت فنجان قهوتي إلى فمي، وارتشفتُ آخر قطرة فيه، ثم سألته:

- هل صديقك عصام يستخدم اسم عائلته بدون أي اسم إضافي آخر؟

- اسمه الذي أعرفه عصام البرادعي.

خرج ابني إلى عمله، وأخذت أقلّب بشكل عفوي صفحات كثيرة في طيات ذاكرتي، نبشتُها ووجدت في رُكام ما فيها من أشخاص حدَّثني عنهم والدي اسم قاضٍ مهمٍّ في المحاكم العليا في فلسطين، اسمه القاضي محمد البرادعي العباسي، له الفضل في تأسيس جمعية لجنة اليتيم العربي في حيفا، وقد كان رئيسَها ومؤسِّسَها، والتقى به والدي عندما انضمَّ إليها مع عدد من البرقاويين الذين يعيشون ويعملون في حيفا.

سمعتُ والدي يمتدح القاضي الصفدي كثيرًا في أحاديثه، ويؤكد أنّ جذوره تمتد إلى العباسيين الذين أسَّسوا دولة الخلافة العباسية، وهم من أشراف العرب.

أثارت هذه المعلومة دهشتي، وتخيلت أنّ مضيفي عصامًا سوف يُدهش عندما أحدثه عن جذور أسرته الممتدة عميقًا في مسارات التاريخ العربي منذ القدم.

بسبب اهتمامي بهذه المعلومة، شعرت بالفرح الزائد للتواصل مع صديق ابني في مساء اليوم، لتعطّشي لمعرفة منابت جذورٍ صفدية جديدة، تتمتع بتاريخ يرخي ظلاله على أماكن أخرى في سلوان بجانب القدس، والسلط وعجلون والحصن ومأدبا، وقرى ومدنٍ أخرى في ضفتي الأردن، تجمعهم المنابت العباسية الكريمة نفسها.

مضت برهة ثم نظرت إلى حاسوبي، ولم أحرك ساكنًا، لكنني كنت أسبح في أفكاري وأثبتُّ عينيَّ على لوحة الحروف، ومن ثم ضربتها بأصابعي ضربات متواصلة، وجدت بها صفحات غوغل مفتوحة أمامي،

وانطلقت المعلومات عن العباسيين تجري أمامي، من خلال السكون المهيمن حولي، قرأت ما فيها وتأكدت من كون عائلة البرادعي الصفدية أصولها عباسية، وتجري في عروق أبنائها دماء قرشية.

انتفضت من هول الدهشة من أنّ المعلومات التي أجمعها من هنا وهناك قد وصلت إلى محرك غوغل ولف عليها سطور أوراقه المحشوة بمعلومات من تاريخنا الذي لا يعرفه أولادنا وأحفادنا.

أدركت أهمية معلوماتنا للغير، وأنهم يعرفون عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا، في وقت نحن نعاني فيه الأمرَّين من اكتساب المعرفة.

في تلك اللحظة عاد ابني من عمله في المستشفى، وفور أن وقف أمامي حدثته عن جذور صديقه العباسية. سمعني بانتباه زائد وهو يحدق في وجهي، وراح يلفظ بعض الكلمات:

- لديك قدرة فائقة الدقة في البحث عن المعرفة المخفية، في كلّ المجالات، وأتذكر الآن كيف طلبت مني في صغري أن أرتب أوراقك بطريقة صحيحة، بينما كنتَ منهمكًا بتعريف المصطلحات الاقتصادية، التي ثبتَّها بين دفتي موسوعتك الاقتصادية، التي أعددتَها طيلة أربعة عقود وأكثر.

ازداد وجهي شحوبًا واحمرارًا، وهو يذكّرني بأيام بحوثي القديمة عن المعرفة، سمعته كشاهد عيان على أيامي الخوالي، لفظ كلماته كلمة تلو أخرى، شدّد عليها بشكل فيه بعض المديح، لكنني لم أشعر بأهمية مديحه، غير أنّه تملَّكني شعور غامر بالأماني الأبوية بأن يواصل ابني

مشواري في البحث عن المعرفة، لأنه أكثر مني قدرة، وما زال يرفلُ في مرحلة الشباب.

بدت منه إشارة تعبّرُ عن موافقته على ما توصَّلت إليه، وانبرى قائلًا: «يكتسب الأبناء بعض مزاياهم من أهلهم، هذا ما يقوله العلم في شرحه للخريطة الجينية للإنسان».

هزّ رأسهُ، وكنت على يقين بأنه ينظر للأمور من منظار آخر، ولاحظت أنّ أفكاره هامت بعيدا عن هذا الموضوع، ثم ساد الصمت المكان، وبعدئذٍ طلب من الجميع أنْ نجهّز أنفسنا للخروج.

بعد بضع دقائق سمعته ينادي بأعلى صوته ويقول بكلمات متواصلة إنَّ ساعة الخروج قد أزفت، وفي الحال خرجنا وجلس خلف مقود سيارته، وجلست إلى جانبه، وانطلق يقود سيارته في شوارع الرياض، يطوي الأرض طيًّا، ويوضّح لنا كل ما يراه في خط سيره الممتدِّ أمامنا.

كان يفتحُ عينيه على اتساعهما، ويُطيل الحديث بدهشة عن شوارعَ عريضةٍ مترعة بالأنوار. وسرعان ما يغرق في تأملات حول الأحياء التي نمرّ حولها، وشعرتُ أنه يشاطر أهلها أفراحهم ومسراتهم، وظل على هذه الحال حتى اقتربنا من الحي الذي يقطن فيه صديقه عصام.

(5)

استبدّ بيَ الفرح عندما أبلغنا ابني بأننا على مقربة من بيت عصام، وأنّ نهاية الرحلة أمست وشيكة، وبينما كان يردد هذه الكلمات، انحرف بسيارته إلى جهة اليمين وأوقفها أمام منزل صديقه، وقد وجدتُ على جدرانه الخارجية إيحاءات وإشارات هندسية مميزة، وتحيط به نخلات تخفي في أعاليها رُطَبًا بدا شهيَّ المذاق.

طرق ابني باب البيت، وما هي إلا دقيقة حتى أطل صديقه عصام بوجهه المشرق، وجَرت الكلمات سخية من فمه وهو يرحّب بضيوفه، وخصّني بكلمات تليق بعمري وقبَّلني من جبيني، ثم طلب منّا الدخول إلى قاعة الجلوس في وقت كانت فيه ابتسامة واسعة تطغى على وجهه.

دخلنا ووجدنا في القاعة مجموعة كبيرة من الرجال والنساء والأطفال من أسرته. قدَّمَنا لهم، ثم قدَّمَهم لنا فردًا فردًا وهو يشير بأصابعه نحوهم، مبتدئًا بتقديم شقيقه الأكبر الدكتور عبد العزيز؛ وهو استشاري جراحة القلب في أحد مستشفيات الرياض الشهيرة، ثم قدم شقيقه الآخر إياداً. وذرع القاعة بضع دقائق وهو يقترب من الجالسين على نحو إرادي، ويردد أسماءَهم كلّهم، بما فيهم الأطفال الصغار، وبنات صغيرات من أسرة شقيقه.

ظلّ على ذاك الوضع بضع لحظات قصار، ثم جلس على مقعد قربي. ومضى يحدثهم عن كتابي «على دروب الأندلس» الذي أُعجب به والده، وكان دوما موجودًا على مقربة من سريره قبل أن يوافيه أجله المحتوم.

بيّنت لمضيفنا استغرابي لتحدُّثه باللهجة الصفدية القريبة من اللهجة الشامية، وعلّق على كلامي:

- ولدتُ ونشأتُ في الرياض، ولم أزر صفد طيلة عمري، وأخذت لهجتي من البيت مع حليب أمي منذ صغري، وقد كانت أمي صفدية أيضًا من عائلة قدورة المعروفة.

وهنا التفتُّ إليه:

- إنني على قناعة بأن اللهجة التي يتحدث بها كل واحد منّا، إنما هي مضمخة بخصائص وراثية وصلت إلينا من الآباء والأجداد، لا يمكننا التخلص منها مهما تغيَّرت الأمكنة التي نعيش فيها في مراحل الحياة المختلفة.

وحين انتهيتُ من كلامي سألني أحد الحاضرين:

- هل تعرف صفد؟ وهل كتبتَ عنها في كتبك؟

فأجبته وأنا أتطلَّع حولي في وجوه الحاضرين:

- زرتها مرتين في حياتي بعد النكبة، المرة الأولى في عام 2013 وسجلتُ تفاصيل زيارتي لها في الجزء الأول من ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور»، وقد استبدّ بي الحزن عندما أنهيت زيارتي لها وخرجت منها.

ثم استدركت قائلًا:

- فراقها كان ثقيلًا على قلبي كثقل قيود الاحتلال التي تجثم على بيوتها وأشجارها وصخورها وكل ذرة تراب من ترابها.

وبينما كنتُ أحاول الحديث عن موضوع آخر يتعلق بمنبت عائلة عصام الغائر في أعماق دولة الخلافة العباسية، طلبَتْ مني إحدى السيدات أنْ أصف لهم ما يحلو لي من انطباعات زيارتي الثانية التي قمت بها لمدينتهم الأثيرة على قلوبهم.

لم تخطئ عيناي نظرات الفرح التي علت وجوه الحاضرين، عندما وافقت على تكحيل عيونهم بمشاهد كثيرة عن زيارتي لمدينتهم. أغمضت عينيّ لدقيقة، وتذكرتُ ما أريد أنْ أردّده على مسامعهم في بحر تلك الأمسية الجميلة. بعدها أمسكتُ نفسي بعض الوقت، وأخذت بارتشاف قطرات من القهوة العربية، من الفنجان الثالث الذي قُدِّم لي منذ بداية السهرة.

أمسكتُ بطرف الحديث وانقضت لحظات خيَّم فيها الصمت على الجميع، وفجأة انثالت الكلمات بنبض عالٍ، وعلت رؤوسهم لسماع صوتي الخفيض، وما لبثتُ أنْ رفعته على موجة عالية واصفًا يوم زيارتي لصفد، وحددته بيوم ربيعي دافئ كانت فيه السماء صافية لا أثر فيها للغيوم.

- سارعتُ في ذلك اليوم إلى تسلُّم سيارة أجرة في مدينة بيسان، وكبتُّ زفرات الحزن والأسى في قلبي لأنني أزور بلدي سائحًا أجنبيًّا بجواز سفر كندي، لكنّني لم أنس في تلك اللحظة حلم العودة الذي لامس مجرى أفكاري طيلة عمري.

سرعان ما انطلقتُ بالسيارة من وسط مدينة بيسان، ثمَّ سلكتُ شارعًا طويلًا ومستقيمًا وسط حقول واسعة مزروعة بالنخيل على طول الشارع، ثم تابعت السير عبر حقول أخرى فيها دلالات حافظة لأشجار زيتون معمَّرة تنبثق من أعماق السنين، عندما كان أهل البلاد يجبلون أتلام الأرض بعرق جباههم.

أدخلَ الشجر المعمر ومضات من السعادة في قلبي، وازدادت سعادتي عندما نبهتني إشارات الطريق الزرقاء إلى أنني على مقربة من صفد. أبطأت حينئذٍ سرعة سيارتي، واتجهت صعودًا إلى

أعلى نقطة في صفد تقع على قمة قلعتها التي تتربع فوق جبل مكسوٍّ بأشجار تداعب الغيوم. أوقفت سيارتي وترجلت منها، وأخذت أنظر متمهلًا في كلّ الجهات من حولي، وأقلّب المناظر الجميلة التي أشاهدها، خاصة بحيرة طبريا ومرج بيسان الواقعَين في الجنوب الشرقي من المدينة، كما فتحت عينيّ وحدقت طويلًا بجبل الجرمق الذي يطلُّ شامخًا قربي، وهو من أعلى قمم فلسطين قاطبة، وما زال في مكانه ولم يعبث به جريان السنين.

سألني أحد الجالسين:

- كيف كان شعورك في تلك اللحظة؟

- تألب كلّ عصب من أعصابي، في حملة واسعة لزحزحة أثقال الحزن التي خيَّمت على قلبي، عندما تأكدتُّ أنّ أراضي صفد تمتد إلى أعماق الأراضي السورية واللبنانية، وأسرفتُ بالتفكير بهذه الخصوصية التي تتميَّز بها صفد، دون غيرها من المدن الفلسطينية الأخرى.

التفتُّ إلى الذي سألني، واستدركت قائلًا في صوت مختنق:

- إنّها لا تومض بالجَمال فحسب، بل يشعرُ فيها العربي أنه ينتمي إلى ثلاث دول عربية، يعدو فيها بحرية من مكان إلى مكان، وتعلو

وجهه أمارات السعادة، رغم أنف الكريهَين سايكس وبيكو ومن لفَّ لفَّهما من أعداء العرب.

ثم استطردت:

- لهذا اختار أغلبية سكان صفد الهجرة إلى سورية، والتقوا بأسر سورية كثيرة هاجَرَت من صفد قبل مئات السنين؛ كعائلة الكزبري التي هاجرت إلى دمشق قبل ما يزيد على أربعمائة سنة.

وما هي إلا لحظة حتى بيّنت أنّهم وصلوا إلى دمشق في يوم النكبة وهم لا يملكون إلا أنفسهم، ثم تمكّنوا مع الأيام اللاحقة من أنْ يواصلوا الحياة على مقربة من أهلهم. وهم يحتفظون بمفاتيح بيوتهم في صفد، وينظرون إلى بعضهم بعضًا نظرة تمور بانتظار يوم العودة.

(6)

وقف عصام في وسط القاعة، وقال بكلمات تفيض بالتأثر وصدق العاطفة بأنني أبعدتهم عن مسار تجوالي في صفد، ثم أيَّد الجميع كلامه، ورفعت طفلة يدها، وقد اتسعت عيناها الكبيرتان الحالمتان، وطلبت مني العودة بهم إلى صفد.

وأيًّا ما كان، فقد تابعت الحديث عن تفاصيل زيارتي لصفد، مبينًا أنني جلست في أعلى قمة المدينة، وأخذت أنظر حولي أكثر فأكثر متفحصًا كل ما أرى منها، وما لبثت أنْ لاحظت أنها مُقامة على تلال عديدة تحيط بها من كلّ أطرافها، مزروعة بأنواع كثيرة من الشجر، بما فيه شجر الزيتون واللوز والتين والرمان والعنب. وتفصل بين تلك التلال أودية عميقة تتجه نحو الجنوب، وهالني منظر تلة تمتدُّ جنوب سفح جبل كنعان التي هي أقدم التلال المعمورة في صفد. جلستُ في تلك اللحظة، بقرب عمود كنعاني قديم ممهور بأثر مئات السنين، نظرت حولي، وأخذت أتحسَّر على حياة أهل صفد قبل النكبة والشتات، وقلت بصوت حالم:

- أريدهم أنْ يعودوا إلى مدينتهم، إلى بيوتهم ويغسلوا عيونهم كلّ صباح بندى الجليل.

لطالما كنت حالمًا، هكذا قلتُ في أعماقي بعد تلك الكلمات، ولا أخفي أنه أثارني منظر العمود الكنعاني الذي أجلس قربه، وأعادني ببهجة

إلى الماضي، استرخيتُ وطفقت أتخيل أيامًا عاشتها صفد من قبل، وأُصغي إلى همس أهلها في زمن مضى.

عند هذه النقطة سألتني سيدة:

- هل لصفد علاقة بالكنعانيين القدماء؟

توقفتُ عن الحديث بعض الشيء، ثم لمست جبهتي بأصابع يدي اليمنى واستطردت بالحديث:

- لصفد شهادة منشأ كنعانية، فقد أسّسها الكنعانيون، وسُميت قديمًا «صفت» باللغة الآرامية لغة الجليلي السيد المسيح، وهي لهذا تعتبر مدينة أثرية من أقدم مدن فلسطين التاريخية.

في لحظة رفع أحد الصغار يده طالبًا الكلام.

ابتسمتُ له ابتسامة عريضة، ثم سأل بجدية واضحة:

- هل كلّ ما تقوله عن مناظر جميلة له علاقة بمدينة أجدادي؟

فأجبته:

- أجل، إنها مدينتك أيضًا، ستعود إليها في قادم الأيام مهما طال الزمن.

انفعلتُ كثيرًا لسؤال الصغير، وناءت نفسي بثقل سراب الوعود الخادعة بالعودة التي ما زال يردّدها أناس اعترفوا بحق دولة عدوهم بالوجود، ويرتاحون على كراسيَّ عالية هزازة، اقتيدوا لها بقيود تغلُّ

زنودهم، ويظنون أنفسهم أنهم مصدر نور الكون، وعيونهم مطفأة لا يرون فيها ضوء الشمس في عزّ الظهيرة.

والواقع أنني لم أشأ أنْ أسترسل في هذا الجانب من حديثي، وفرضتُ على نفسي أنْ أنزع إلى الحديث عن زيارتي إلى صفد.

توقفت عن الحديث بعض الشيء، ثم نظرت في وجوه الأولاد والبنات الصغار الجالسين أمامي، وتابعت السرد عن خبايا تجوالي في الجانب الخارجي للمدينة، وحدَّثتُهم في سرعة خاطفة عن وجود مقامات في ذلك الجانب يَؤزُّ فيها طنين الزمن الماضي، وبجوارها تعرفت على مزارات وبقايا أبراج وخرائب ومعاصر زيت وأحواض محفورة في الصخور، ودرج سلالم حجرية تتصاعد إلى أعلى على امتداد التلال.

رفعت إحدى الصغيرات إصبعها سائلة:

- هل يمكن المشي على درج السلالم الحجرية.
- أجل، وأنا رغم عمري المتقدم وضعف صحتي مشيت عليها صعودًا وهبوطًا، وشعرت بسعادة وأنا أشاهد قطوف العنب وهي مدلاة على مقربة مني، على شبكة أسلاك مرفوعة نحو ثلاثة أمتار فوق الأرض.

ثم سألت الصغيرة أيضًا:

- هل كان لون العنب الذي شاهدته أبيضَ أم أحمرَ؟

- من كلا اللونين، ونوعه يشبه نوع عنب قرية سنجل وعنب مدينة الخليل من أشهر أنواع العنب المعروفة في فلسطين.

ابتسمت الصغيرة، واهتزَّت ضفائر شعرها المتناثرة في كل الجهات ثم قالت بصوتها الخافت الرقيق:

- أنت تصف لنا بكلمات جميلة، جنة نادرة على الأرض، أشبه ما تكون بجنة الخلد.

ومن فوري قلتُ لها بجدية تحت وطأة مشاعري:

- بلادنا جنة لن تجدي مثلها في العالم أجمع، لأنها الأرض التي بارك الله فيها وبأهلها وكلّ ما حولها من الدول العربية الشقيقة.

شعر الجميع بالسعادة لما قلتُهُ لهم، وسألني أحدهم من الشباب:

- هل تجوَّلتَ مشيًا على الأقدام في داخل المدينة؟

فأجبته متمهلًا بالحديث:

- أجل تجولتُ في حاراتها وأزقتها، ولم أجد فيها أحدًا من العرب، فقد هُجّروا كلهم يوم اشتدت ظلمة النكبة، ومالت الشمس إلى الغروب مضرِّمة في الفضاء على اتساعه ظلمة أبدية، وانطفأت في الوقت نفسه النجوم في بيادر السماء.

بعدئذٍ استطردت بالحديث عن نتائج تجوالي داخل المدينة، وبيَّنتُ للحاضرين بحزن ظاهر أنّ الاحتلال عبث بكل شيء بقي بعد رحيل أهل صفد، حتى إنّ المساجد قد تحولت إلى أمكنة تجارية وترفيهية، ودنس

فيها المحتل البغيض معتقداتنا الدينية، وأعطيتُ أمثلة عملية من الواقع الحالي المعيش في صفد، بينت فيها أنّ المسجد اليونسي الكبير (جامع السوق) في حارة «الوطاء» قد تحوَّل إلى معرض للفنون لعرض الرسوم والصور الإباحية، كما تحوَّل مسجد مَقام يعقوب إلى كنيس يهودي يحمل اسم نوح وحفيده، ولا يحمل أيّ أثر لما كان عليه من قبل.

لم تخطئ عيناي نظرات الاستغراب من الجالسين أمامي، علت تنهداتهم بصوت عالٍ في لحظة من الوقت، ثم باغتُّهم بمواصلة الحديث عن تجوالي في المدينة، مبينًا أنني أمسكت على أنفاسي وتابعت المشي في الطرق الممتدة أمامي، وأخذت أتفحص كل شيء أراه حولي، عيناي كانتا تدوران في كل الجهات، تحدّقان في وجوه غرباء جاؤوا من كل أطراف الدنيا، أداروا ظهورهم لي، وابتلعت نظراتي التائهة منظر ألبستهم السوداء الطويلة، وقبَّعاتهم السوداء التي يعتمرونها دليلًا ظاهرًا على تدينهم.

ألقيتُ عليهم نظراتي، وفي لحظة نقر أحدهم على ظهري بضربات خفيفة، شعرتُ أن لها وقع أقدام الأحصنة الجامحة، وما كان مني إلا أن استدرت حولي لمواجهته، وعندما رأيت وجهه، ضحك بسخرية، ثم مضى في سبيله ومشى خطوات بعيدًا عني، وظلت عيناىَ مسمَّرتين في الاتجاه الذي سار فيه، وشعرتُ بحزن شديد أنّ كلّ شيء يتلاشى حولي.

(7)

كنتُ أعرف جيدًا مدى تأثير أقوالي على الصغار، ووجدت نفسي مندفعًا بشدة للتواصل معهم بسرد واضح. ساد صمت في تلك اللحظة وتراءى لي خلاله شريط طويل يحمل في طياته كلّ تفاصيل رحلتي إلى صفد.

ثم ألقيت نظرة خاطفة على جميع الجالسين، وبعدها تابعت حديثي عن تجوالي في الجهة الشرقية من المدينة، مبينًا أنني مشيت ببطء على مقربة من البيوت العربية المهجورة، رمقتُها بنظرة بدون أن أرفع صوتي، ثم خفضتُ عينيَّ من الخجل مما أرى من هياكل حجرية متصدِّعة آيلة للسقوط لعدم الصيانة الدورية التي تضفي عليها قوةً وثباتًا، وقلت في نفسي: «هذه هي حال كلّ البيوت المهجورة في المدن العربية، بما في ذلك بيت أهلي في شارع الناصرة، على الطرف الجنوبي من وادي الصليب في حيفا التحتة».

مضت برهة لم أحرِّك ساكنًا، إلى أن رأيت بيت شخص من كبار المشاهير في الزمن الحالي، من الذين يسيرون بزهو في ركاب الاحتلال، قد حُوِّل بيته إلى مكاتب رسمية لأحد الأحزاب اليمينية المتطرفة في دولة الاحتلال. شعرتُ في تلك اللحظة كأن أسواطًا ألهبت ظهري، تلفتُّ بعيني في يافطة الحزب المثبتة على باب البيت، ثم واصلت المشي

بسرعة، شققت طريقًا طويلًا، ومن ثم جلستُ على مقعد حجري في وسط المدينة، وأحسست بالإهانة والخجل لأنني غريب في بلدي؛ أزورها كسائح غريب، يشيح عني المحتلّون بوجوههم ويديرون لي ظهورهم، ولا يقيمون لي وزنًا لأنني مجرد سائح عابر لا أكثر.

بعد فترة قصيرة اتجهت إلى شرق المدينة، ورأيت سورية على امتداد الأفق سابحة أمامي بمنظر بديع لا يُنسى، وخُيِّل لي أنني أرى فيها جبل قاسيون. ثم لاحظت أن قسوة السنين أضعفت بصري. وبعد ملاحقة المناظر التي رأيتها عن بعد، تأكدت بأن الجبل الذي أراه، هو جبل الشيخ المغطى بأغطية من الثلوج البيضاء على امتداد فصول السنة، ورأيت معه في الوقت نفسه هضبة الجولان المحتلة، وجبال عجلون وأم قيس وأطرافًا من مدينة إربد، وحقول القمح في سهل حوران.

بعدئذٍ استدرت بعض الشيء في جلستي ورأيت بحيرة طبريا تطلُّ عن قربٍ، كانت قاب قوسين مني، أثارتني بمنظرها الجميل وشعرتُ كأنها قطعة من الجنة، وبدت عيناي وأنا أنظر لها في تلك اللحظة، كأنهما خرجتا من محجريهما.

وبينما كنت أنظر إلى البحيرة بانتباه زائد، رأيت عن بعد تدفق المياه في طرفها الجنوبي، في النقطة التي يبدأ فيها نهر الأردن بالجريان نحو البحر الميت، وشاهدتُ التقاءهُ بنهر اليرموك القادم من سورية، احتضنت قطرات مياه النهرين بعضها بعضًا، في نقطة تلتقي فيها أراضي فلسطين

والأردن وسورية عند جسر يتمطى بزهو فوق نهر الأردن سماه الأجداد جسر المجامع.

علقتُ بعد ذلك بصوت يخفقُ في هياج واضح، في الوقت الذي كان به الحزن ينهش قلبي: «بلاد العرب أوطاني...».

ثم التصقت كلماتٌ في طرف فمي، بصعوبة قلتها بنشوة فائقة: «علمني هذا النشيدَ الوطنيَّ المهم، أهمُّ أستاذ في حياتي؛ الذي علمني حروف الأبجدية العربية، وهو برقاوي مثلي، اسمه الشيخ محمود ياسين الحمد، طيب الله ثراه». ثم أضفت: «طيلة عمري وأنا أبحث عنه، لأهديه نسخًا من مقالاتي وأشعاري وما يقرب من خمسين كتابًا كتبتها بمدادي طيلة أيام حياتي، فيها روايات كثيرة ألَّفتُها من بنات أفكاري، ولكي أقول له إنّني ما زلت تلميذه الصغير حتى الآن، وأنا أكدس على أكتافي كومة ثقيلة من السنين».

ارتسمت على فم عصام ابتسامة عريضة، وقفزت إلى ذهني فكرة في أن أسأله عن سبب ابتسامته، لكن اهتمام الحاضرين بمتابعة حديثي عن صفد، جعلني مرغمًا على تأجيل سؤالي إلى وقت آخر من السهرة.

لكنَّ عصامًا أخذ طرف خيط الحديث مباشرة وقال بصوته العالي:

- ابن أستاذك الذي بحثتَ عنه طيلة عمرك، هو الدكتور عبد العزيز زوج شقيقتي، أستاذ جامعي بجامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل بالدمام، في مجال الهندسة المدنية والإنشائية. أعدك أن أعرِّفك

عليه قريبًا، وتحدثه عن ذكرياتك التي لا يعرفها عن المرحوم والده أستاذك الأثير على قلبك.

طرت من الفرح لما سمعته من عصام، وظهرتُ مأخوذًا بكلامه، وطلبت منه أن يعيد ما قاله للتأكد من صحة ما سمعته منه، وبالفعل تلا ما قاله عن صهره مرتين متواليتين، متمهِّلًا بما يقوله حتى لا ينسى كلمة واحدة، في وقت كنت به غارقًا في خضم متلاطم من الأحاسيس الجياشة.

خيَّم الصمت واستسلمت للتفكير بتأثير حديث عصام على مجرى أيامي القادمة في الرياض.

وفي لحظة وقفت الصغيرة التي رشقتني بالأسئلة أكثر من غيرها طيلة الأمسية، وسلت:

- هل ستكمل لنا ما تبقى من حديث عن زيارتك لصفد؟

نظرتُ لها بحنو الجدّ إلى حفيدته، وتابعت حديثي عن زيارتي، مشيرًا إلى منظر بحيرة طبريا الجميلة القريبة منها، التي تُعتبَر البحيرة العذبة الأكثر انخفاضًا في العالم.

تابع أحد الجالسين كلامي عن البحيرة باهتمام بالغ، ثم سألني:

- هل زرتَها وتجوَّلتَ فيها؟ أم اكتفيتَ فقط برؤيتها من صفد؟

- كلّ من يزور صفد لا بدّ أنْ يزور طبريا، لأنها جارتها، تعانقها صباح مساء منذ آلاف السنين.

استويت في مقعدي وتابعت حديثي، مبينًا أنني هبطت بسيارتي من أعلى قلعة صفد، إلى الطريق العام ثم اتجهت يمينًا نحو طبريا، ووصلت إليها بعد بضع دقائق، وتابعت السير بسيارتي ببطء نحو الطرف الجنوبي للمدينة المسورة، ثم ركنت السيارة في موقف واسع يقع على مقربة من بقايا سور طبريا القديم الذي بناه الحاكم الفلسطيني الشهير ظاهر العمر الزيداني.

علَّقَ أحد الجالسين سائلًا:

- هل كان لنا حاكم من بلادنا في ما مضى؟
- أجل، لقد ثار ظاهر العمر الزيداني على الدولة العثمانية، وأسَّس دولةً في الجليل ضمّ إليها أجزاءَ واسعة من جنوب سورية، وبقي على رأس حكمه فترة طويلة من الزمن، حوَّل فيها حيفا من قرية صغيرة لصيادي السمك، إلى مدينة مُزنَّرة بسور طويل من كلّ جهاتها.

ثم أضفت أن بلاد الشام أعارتها اهتمامًا خاصًّا، وأصبحت واحدة من أهم المدن العربية الساحلية، تتذبذب هزات أمواج بحرها على مدى الأيام وهي تصارع بشدة العواصف العاتية.

(8)

بعد أن ذكرت للجالسين أمامي شذرات تعريفية موجزة عن حيفا، زادت رغبتي الجامحة في التحدث عن طبريا. رشقتُ الجميع بنظرة، وقلتُ -مكملًا حديثي الذي وقفت عنده قبل السؤال السابق- بأنني تقدمت خطوات إلى الأمام، ثم اتجهت بعدها إلى درج حجري أوصلني إلى فندق طبريا، الذي اعتُبر في ما مضى أهم فندق في منطقة الجليل الواسعة. كان يؤمُّه السياح في فصل الشتاء للتمتع بدفء طبريا، وتُقام فيه الحفلات الغنائية لكبار المغنين العرب في ذلك الوقت من الذين نالوا شهرة فريدة من سورية ومصر ولبنان، منهم المغنية السورية أسمهان، وقد غيرت اسم فيينا في أغنيتها الشهيرة، ووضعت محلها اسم طبريا، وكانت تصدح قائلة: «ليالي الأنس في طبريا».

اقتربت بعد رؤيتي للفندق من شاطئ البحيرة، ورأيت أمواجها تتقافز بسرعة أمامنا، وتضرب الأسماك بضربات لا تُرى، تلمسها بين الحين والحين، وتبقى الأسماك سابحة فيها دون ممانعة، لأنّ السمك يهوى ضرب الأمواج الخاطفة لأنّها تساعده على دفعه إلى الأمام وفي كل الاتجاهات، خاصة سمك الشبوط والمشط؛ الأكثر شيوعًا في البحيرة.

سمعتُ في تلك اللحظة موجات ضحك متواصلة من الجالسين، لم توقفني عن الحديث عن سمك بحيرة طبريا.

أخيرًا استسلمت لصوت ضحكهم العالي، وفي لحظة عرفت سبب الضحك، عندما وُضع سدر دائري ضخم على طاولة الطعام، وبعد إزالة أغلفته، رأيت فيه كمية كبيرة من الأسماك، وقال مضيفي: «ضحك الجميع لأنهم يعرفون أنّ عشاءنا يتكون من عشرات أنواع الأسماك الشهيرة التي تعيش في مياه الخليج العربي والبحر الأحمر».

تبعتُهُ قائلًا: «أتمنى في قادم الأيام أن تُقدِّم لنا سمك الشبوط والمشط أيضًا، لأنّ أسماك بحيرة طبريا من أطيب الأسماك، وتحتلُّ درجة عالية في منصة الباعة في منطقة الجليل».

دعانا مضيفنا لتناول العشاء، واقترب الجميع من بعضهم بعضًا، وبدأنا بنبش حواشي السدر بأيدينا، وتكديس السمك الشهي في صحوننا. وأدهشني مضيفنا عصام باعتنائه بي بنفسه بشكل خاص، وأكرمني بوضع كميات من السمك في صحني، وأضاف عليها كميات من الروبيان وأم الروبيان والكلاماري، وما احتاجه الأكل من مشهيات تُقدَّم مع وجبة السمك.

وحين وجدت نفسي منهمكًا بالأكل، سألتني سيدة جلست في الجهة المقابلة لي:

- كيف تصف لنا جمال بحيرة طبريا؟

فأجبتها دون أنْ أرفع رأسي عن صحني:

- سأصفها كما وصفها الشاعر العربي الشهير المتنبي، الذي أقام فيها مدة سنتين من أجل الطبابة، وقال فيها:

كـــأنَّها في نهارها قَمـــرٌ　　　　خـــفّ بهِ من جِنانِهـــا ظُلَـــمُ
تغنتِ الطيرُ في جوانِبهـــا　　　　وجادتِ الأرضَ حولَها الدِيَمُ
فهـــيَ كَماوِيَّةٍ مطـــوَّقةٍ　　　　جُـــردَ عنهـــا غِشـــاؤُها الأدَمُ

ثم سألت السيدة نفسها ثانية بانتباه زائد:

- هل المتنبي نظم شعرًا في صفد مثل شعره الذي قلته؟

توقفت عن الأكل وأجبتها:

- لم أجد في شعره ما يؤكد نظمه قصيدة لصفد، رغم أنني على يقين بأنه عبَّر عن إعجابه بها لجمالها وقربها من البحيرة، إذ تظهر في عليائها كقيثارة تمد أوتارها على اتساع بحيرة طبريا، تدغدغ أمواجها، وتُخرج أصواتًا جميلة، ترقص النجوم على إيقاعها على مدى الأيام.

أومأ مضيفنا برأسه وقال وهو يضغط على نواجذه: «حسنًا، دعنا من الشاعر المتنبي، وعلينا الآن مواصلة أكل ما طاب من الأسماك التي ما زالت مكدَّسة في صحنك، ولم تذق منها شيئًا».

حين وصل عصام إلى هذا الحد من الكلام واصلت تناول السمك بشهية ظاهرة، وبعد فترة قصيرة أنهى الجميع الأكل، وبعد لحظات معدودة قُدِّمت الكنافة النابلسية، ونظرت مليًّا في صحون الحلوى، ووجدتها غارقة بالقطر، وما لبثت أن رأيتها ممزوجة بظلال من جبلي جرزيم وعيبال.

بعدها دارت فناجين القهوة العربية، المجهزة على الطريقة السعودية، وبينما كنت أرتشف قطرات منها، رفعت رأسي وحدقتُ بوجه مضيفنا عصام، وقلتُ بنبرة تنضح بالحماسة: «تذكرتُ اليوم ما سمعته من والدي عندما حدثني في صغري عن جمعية لجنة اليتيم العربي التي أسَّسها القاضي محمد البرادعي العباسي في حيفا، وهو شخصية صفدية مقدرة، شغل منصب قاضٍ في المحاكم العليا بفلسطين، وكان هدف اللجنة مساعدة أبناء الشهداء والأيتام الذين خلفتهم ثورة 1936».

كان مضيفنا عصام ينظر إليّ مبتسمًا، وشجعتني ابتسامته على الاسترسال في كلامي، مبينًا أنّ القاضي مؤسس جمعية اللجنة هُجّر يوم سقوط حيفا وقادته الدروب إلى عمّان، وأعاد تأسيسها فيها من جديد في عام 1949، باسمها الذي عُرفت به في حيفا، وما زالت تعمل حتى الآن، وقد رفدت الجمعية بعطاءاتها مجموعة كبيرة من الطالبات والطلبة خلال مسيرتها الطويلة، وبددت ظلام اليتم في حياتهم، علمتهم واحتد نشاطهم في دروب الحياة، وتوغلوا في توظيف مكاسبهم المعرفية في خدمة وطنهم،

وحققوا حلمهم بالعيش في مدارات حياة كريمة، كقوة فاعلة يدفعون إنجازاتهم قدمًا إلى الأمام.

وقف عصام على نحو مفاجئ، وأكد صحة معلوماتي، وبيّن أنّ القاضي محمد البرادعي العباسي ابن عم والده، من أقرب أفراد أسرته إليه، كان رجلًا من خيرة الرجال، وفي غمرة بحثه عن مستقبل للأيتام فتَحَ الأبواب الموصدة في وجوههم، أصبح له مكانة مرموقة بين مجايليه، ونال أوسمة تقديرية تواشجت مع أفعاله حتى آخر لحظة في حياته.

تعود أبو عصام زيارة ابن عمه في عمّان، كان يشعر بالفرح عندما يلتقي به، ويتذكر معه أيام أهلهم الماضية في صفد وحيفا، عبر سلسلة أحاديث متواصلة، يرددون فيها أسماء أجدادهم وجذور أسرتهم.

وبناءً على أدلة كثيرة تعرّف أبو عصام على أسرته في عمّان، وأكَّد له ابن عمه القاضي أنّ أسرتهم تنتسب إلى العباسيين الذين أسَّسوا دولة الخلافة العباسية، ولهم أقرباء كثر في الأردن؛ خاصة في السلط وعجلون والحصن ومأدبا، واستمر لهيب أصولهم يسري في عروقهم في المهجر، لكن صفد كانت تتقلَّب دومًا مع تلالها وصخورها في أعماق قلوبهم.

أومأت له بالإيجاب بكل ما سمعته منه، ثم قلتُ له بتركيز ظاهر:

- إن جمعية لجنة اليتيم العربي في عمّان، لها مكانة وهمّة في الوقت الحالي، تمنح خلودًا معنويًّا لمؤسسها، تشحن ذكراه بدفعات زاخرة من الإنجازات المتواصلة على مدى الأيام.

نظر عصام باستغراب، ولاحظت أنه انتابه شعور بالسعادة لأنني أعرف الكثير من المعلومات الشخصية عن أسرته، ثم ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة وهو يقول:

- كم أتمنى لو أن والدي بيننا ليسمع هذه المعلومات عن أسرتنا، ويشنف أذنيه بتفاصيل رحلتك إلى صفد، مدينته الأثيرة على قلبه. كان يرسمها لنا على الورق المقوى ونحن صغار، وينظر دائمًا إلى تلالها وبيوتها بعينيه المشعتين، ويحدثنا عنها بأسلوب عاطفي يؤجج شعلة الفرح في قلوبنا.

نظرتُ إلى ساعة يدي، ووجدت عقاربها تشير إلى الساعة الثانية صباحًا، وقلتُ لمضيفنا عصام، ها إنّ ساعة الرحيل قد أزفت. وفي الحال نهض جميع الجالسين، وخرجنا من الباب الرئيس، وبينما كنت أودع الجميع، نظرتُ إلى عصام، ولسان حالي يقول له: «الوعدُ هو الوعد يا صديقي، لقد وعدتني أن تعرّفني على الدكتور عبد العزيز ابن أستاذي الشيخ محمود ياسين الحمد».

أشار عصام بيديه إشارة القسم، وتوهج وجهه، وقال: «أبشر أعدك أن تلتقي به قريبًا».

(9)

في صباح اليوم التالي أفقت مبكرًا، وجلستُ في الشرفة المشمسة إياها، وفجأة قررت أن أتصل هاتفيًّا بابن خالتي ضرار أبو عمر، الذي قُيِّض له البقاء في بُرقة وما زال يعيش فيها ويكحّل عينيه صباح مساء بهضابها وأشجارها وزهورها، وهدفي من الاتصال به أن أحصل منه على معلومات عن أبناء عمومته آل الحمد، الذين خرجوا من بُرقة قبل فترة طويلة من الزمن، واستقروا في المملكة العربية السعودية مواطنين من مواطنيها.

علاقتي بضرار ممهورة بقرابة الدم به وبإخوته، لأنّ أمّهم ابنة خالتي جميلة كانت لي بمقام أختي الكبيرة التي اعتنت بي كثيرًا عندما كنت مريضًا بشلل الأطفال، وبعد شفائي ساعدتني على متابعة دروسي في البيت بعد انتهاء وقت المدرسة، وقد كانت أيضًا قريبة من قلب أمي، تعتبرها ابنتها لأنها أنجبت ثلاثة أولاد، ولم ترزق ببنت ترافقها في مجرى حياتها.

تحدثت مع ضرار على المسنجر، وسمعتُ صوته على الطرف الآخر من الخط، وأطلقت العنان لصوتي ليعبر له عن سعادتي للتحدث معه من الرياض التي أتمتع فيها بضيافة ابني الأكبر. وكعادتي دوما، سألته عن أسرته وأخباره ونشاطه الاجتماعي في بُرقة، وتوالت أمامي صورٌ عديدة،

تسربت منها ذكريات جميلة ذكرتني بجهود مشكورة بذلها مع صديقنا سامي دغلس لإشهار ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور».

عبَّر عن فرحه بمكالمتي، وبدا من صوته جاهزًا للتحدث عن أخبار بُرقة، وما لبث أن اختصر الأخبار العادية، ثم ركز على الحديث بتوسع، بكلمات تغلي بالعاطفة المتأججة عن حصار المستوطنين للبلدة. واستأنف الحديث عن جمهرة الفزعات التي كانت تصل إليهم من القرى والمدن الفلسطينية، وخصَّ بالذكر مجموعة من المتضامنين وصلوا من الداخل الفلسطيني، وقد أشرف على تنظيم قدومهم الناشط الكبير رائد نصر الله الذي تنحدر جذوره من بُرقة.

وببساطة مبطنة بالمحبة الزائدة لبلده، قال ضرار:

- كلّ الذين رافقوا رائدًا في مسيرته التضامنية، ذكرتَهم أنت في الجزء الثاني من ثلاثيتك، في مقدمتهم ناصيف معلم، والدكتور سهيل أسعد وزوجته نهى وغالب سيف.

قلتُ له حينئذٍ إنني تابعت زيارتهم لبُرقة، وأرسل لي الصديق رائد كلّ الكلمات التي أُلقيت في المجلس القروي، وزودني بمقالة كتبَتْها منى أسعد في جريدة الاتحاد الحيفاوية، وقد وضَّحَت فيها كيف أنها بحثت عن بيت جدها سليمان الناصر المعلم أحد وجهاء بُرقة المعروفين في زمانه.

بعدها استرسلتُ بالحديث بنبرة تنمُّ عن الفرح قائلًا لضرار: «قررتُ أن أنشر الجزء الرابع لبحثي عن الجذور، وسوف أخصصه لقريبين لك

من آل أبو عمر، هما القائد الثائر الشهير أحمد ياسين الحمد الذي استقر بالسعودية بعد أن خمدت ثورة عام 1936 التي كان أحد أبطالها ويُشار إليه بالبنان لشجاعته في معارك الثورة».

وفي الحال سألني ضرار:

- من الشخص الثاني من أقربائي؟

فأجبته بفيض من المشاعر الجياشة:

- شقيقه أستاذي الشيخ محمود الياسين الحمد، الذي علمني في مدرسة البرج الحيفاوية وفي مدرسة بُرقة، وأعتبره أهم أستاذ في حياتي. اكتشف مبكرًا موهبتي بالكتابة ورعاني، ومن رعايته أستمدُّ حتى الآن في شيخوختي حروفي التي أكتبها وقوافي أشعاري.

مضت برهة صمت، ثم قال ضرار بصوت واضح النبرات:

- أتمنى لك النجاح في الحصول على المعلومات الخاصة بهما.

واعتذرَ لأنه لا يعرف عنهما الكثير، لكنه يذكرهما دومًا لأن بيوت أقربائه آل الحمد، تقع على مقربة من بيت أهله، وعلى مقربة من بوابة آل أبو عمر.

كلماته كانت سببًا لسؤالي عن علاقة والده بهما، فأجابني:

- والدي كان على علاقة مع القائد الثائر، وجُرح في معركة جرت على مقربة من بُرقة وتهشَّمت عظمة في أعلى قدمه.

بعدها أضاف مستدركًا:

- عندما التحق والدي للعمل بالمؤسسة العامة للخطوط الحديدية السعودية، سنحت له الفرصة للتواصل مع قريبه القائد أحمد والمربي الشيخ محمود، وكانت ترتجف كلماتهم وهم يتحدثون بأحاسيس جياشة عن ذكريات يفاعتهم في بُرقة.

وبعد مرور برهة وجيزة، صاح ضرار بصوت عالٍ قائلًا:

- أخي الأكبر عبد الحكيم يقيم ويعمل في الرياض، وهو على علاقة مع أحفاد القائد الثائر أحمد ياسين الحمد، وأنا على يقين بأنه سيعرّفك عليهم عن طيب خاطرٍ، وتنال منهم ما تبغيه من المعلومات.

سجلت على أوراقي رقم شقيقه في الرياض، وتوقف الحديث بيننا عبر الهاتف، في لحظة تدلَّت فيها أمامي صورٌ جميلة لأشجار بُرقة الباسقة بأغصانها المتشابكة على اتساع الفضاء.

أسعدني أنني حظيتُ بجوابٍ شافٍ من ضرار، وشعرت أنني أمسك بطرف خيط سيقودني للبحث عن آل الحمد في الرياض، وفي الحال اتصلت هاتفيًّا بابن خالتي عبد الحكيم، فسمعت صوته يأتيني عبر الأثير، وما لبثت أن عرفته بنفسي، وقاطعني قائلًا:

- أنت ابن خالتي الذي لم يُسعفني الحظ للقاء به من قبل.

قلتُ:

- أجل لم نلتق من قبل لأنني فارقتُ بُرقة مبكرًا، ودارت الأيام دورتها الطويلة في منافي الشتات.

وتابعتُ الحديث معه بكثير من الأمور العمومية الخاصة بي، وأفرحني أنه يعرف الكثير عني وعن كتبي، وبخاصة ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور»، وفي لحظة تساءل:

- هل تبحث الآن عن جذور جديدة من حيفا وبُرقة؟

وبكل هدوء أجبته:

- أريد أولًا أن أراك وأتعرف عليك وعلى أسرتك، لأنني أزور الآن الرياض لفترة قصيرة وأقيم في بيت ابني.

وأضفت له مبينًا أن لدي رغبة جامحة للتعرف على أقربائك من آل أبو عمر في السعودية، أولاد وأحفاد القائد الكبير أحمد ياسين الحمد، وشقيقه أستاذي الشيخ محمود ياسين الحمد، لكي أكتب عنهما جزءًا رابعًا خاصًّا بهما يضاف إلى الأجزاء الثلاثة التي نشرتها من قبل حول بحثي عن الجذور.

رد عليّ بكلمة تُردَّد كثيرًا في السعودية: «أبشر».

نطق بهذه الكلمة بإثارة واضحة، بعدها أنهى حديثه قائلا:

- أرسل لي موقع سكن ابنك على الواتساب، من أجل أن أزورك في مساء اليوم للسلام عليك.

ثم أضاف وقد امتلأ نشوة:

- سوف أصل إليك مع زوجتي في تمام الساعة السادسة مساءً.

(10)

توقف حديثنا عبر الهاتف، ودارت الدقائق تتبع بعضها بعضًا، وأنا أداعب بأصابعي لوحة كلمات حاسوبي، وأواصل الكتابة كلمة تلو كلمة من فصول روايتي الجديدة «المنسي» التي لامست فيها عشرات الوجوه المضيئة كالشمس. كانت حروف روايتي مشدودة بأوتار مزينة طويلة، وعيناي تبحثان عن أفكار جديدة تنزلق على أوراقي بسطور طويلة لا نهاية لها، أثبتها بعناية حتى ترتوي أوراقي منها.

انتصف النهار وتوقفت عن الكتابة ولفَّعتُ الحاسوب بغطائه، ثمَّ أخذت الساعة تجر عقاربها إلى الأمام، ساعة بعد ساعة، وبسرعة أطلَّت الساعة السادسة مساءً، وأطلَّ معها ابن خالتي عبد الحكيم وزوجته شقيقة صديقي غالب عبد الهادي أبو عمر. التقيتُ بهما أمام بيت ابني، رحبتُ بهما أيّما ترحيب، ومشينا معًا خطوات إلى الأمام، ثم جلسنا في قاعة الاستقبال، وعرفتهما على زوجتي وابني وزوجته وأحفادي، وبدوت فرحًا بقدومهما. وأخذوا كلّهم يتبادلون الحديث، وأسعدني أنّ ابن خالتي يتقن الحديث بنبرة هادئة تستحوذ عليه، وهو يرسم على وجهه ابتسامات عريضة تعبر عن فرحه الزائد بالتعرف على أقرباء له لم يرهم في حياته من قبل.

بَرقت عيناه وهو يتحدث مندفعًا عن أهلنا وخاصة عن أمّه التي كانت تحتفظ في بيتهم بصور كثيرة لي، وعن علاقتها الحميمة مع خالتها أمي، وأشار إلى علامات مهمة عن تلك العلاقة التي لا تُمحى من ذاكرته.

مرّ الوقت بطيئًا، وأشرفت الشمس على الغروب، وطلبت مني زوجة ابني أنْ أبيّن لها بوضوح علاقتي بأم عبد الحكيم، وفتحتُ لها أبوابًا واسعة تعيدني لأيامي الماضية، بينتُ لها من خلالها صفحات من أيام أهلي الماضية، تُظهر بوضوح أنّ أمّه ابنة خالتي، وخالتي أمها رحلت عن دنيانا وهي صغيرة، واهتمت بها أمي سارة وخالتي فاطمة وجدتي عائشة، وقد حظيَتْ بفرصة الدراسة في مدرسة بُرقة، وكانت من البنات النادرات اللواتي كن يتقن القراءة والكتابة في زمانها.

وما هي إلا فترة حتى بدأنا ارتشاف الشاي الممزوج بالميرمية، وتناولنا قطعًا من الحلوى جهَّزتها زوجتي من الحلبة، ثم أخذتُ بالحديث عن الجانب الذي يخصّني من قرابتي بأم عبد الحكيم. التفتُّ إلى الجميع مبينًا أنّها كانت أكبر مني سنًّا، وتعاملني كأخيها الصغير وتعتني بي كثيرًا، كانت تحملني لأنّني لم أتمكّن من المشي حتى السنة السادسة من عمري، وبعد دخولي المدرسة كانت معلمتي تهتم بكلّ شاردة وواردة بشأن دروسي، خاصة عندما درست الصف الأول الابتدائي في مدرسة بُرقة، وكنت أنتظر زيارتها لنا في حيفا كي تتجول معي برفقة خالتها أمي، في

جزء مهم من جبل الكرمل يُسمى «الخراريب» لكثرة أشجار الخروب المنتشرة على اتساعه.

كنت أزور والدها إبراهيم عبد الله الخليل كثيرًا في بيته عندما هُجّرنا من حيفا وأجلس بجانبه، وكان مشهورًا بمعرفته المدهشة في التاريخ، وعلى وجه الخصوص تاريخ بلاد الشام، وكانت دومًا تسألني عن المعلومات التي أسمعها من والدها، وبهذا نمَّت في نفسي حبّ المعرفة مبكرًا منذ أيام يفاعتي، وكان والدها يلاحظ ذلك ويقول لي وهو مبتسمٌ:

«لا خوف عليك، يعتني بك في المدرسة أحد أهم أساتذتها، الشيخ محمود ياسين الحمد، وتعتني بك في بيتك ابنة خالتك جميلة التي تهتم بتدريسك اهتمامًا كبيرًا».

كنت عندما أطلب منها شيئًا، تستجيب لي في مثل لمح البصر، وكنت أتسابق معها في تقديم كلّ ما يلزم جدتنا عائشة محمد أبو عودة سيف. وعندما لازمت الفراش في مرضها الأخير، جلست مع ابنة خالتي على مقربة من رأسها، وعندما اشتدّ على صدرها ثقل اللحظات الأخيرة، نادت في صوت كالهمس على جميلة، ثمّ نادت عليّ، وطلبت منها ومني أنْ نقرأ لها آيات من القرآن الكريم، وسارعَت بإمساك يد حفيدتها ويدي، وحدقت النظر بنا، وبعد لحظات معدودة رأيت على وجهها آثار النزع الأخير، ثم زفرت زفرتها الأخيرة.

كان لا بدّ أنْ أمسك بطرف خيط ابنة خالتي ثانية، كي أتفحص بمصباح مضيءٍ نقطة مهمة من علاقتي معها؛ فأنا أُعرِّف أولادها بأنهم أولاد خالتي زيادة في التحبب. وكما تَقدَّم أظهرت للقارئ أنّها ابنة خالتي، وأعتقد جدا في مشاعري أنها أختي الكبرى.

رسم عبد الحكيم ابتسامة عريضة غمرت وجهه، وانفتحت عيناه الواسعتان وهمس:

- كانت تعتبرك شقيقها الصغير.
- ولهذا أشعر بمودة خاصة لنسلها، أنتَ ولمياء وحكمت وحريص وضرار وجعفر وإيمان.

بعدها انبرى عبد الحكيم للحديث من جديد، ثم أدرك أن الوقت أصبح متأخرًا، وعليه الرحيل مع زوجته، وبينما كان أحفادي على مقربة منا التفت إليَّ ضيفنا قائلًا: «لا بدّ من إنهاء هذه الجلسة الجميلة، التي أودّ أنْ تمتدّ حتى انبلاج الفجر».

نهض ضيفنا وزوجته، ونهضت معهما، ثم سرت بجانبهما مستعينًا بعكازي، وبعدها لحق بنا الجميع، واحدًا إثر واحد، وتم توديعهما بعد الاتفاق على حضور وليمة عشاء في بيتهما يحضرها بعض البرقاويين وحفيدان من أحفاد القائد الثائر أحمد ياسين الحمد، لكي تداعب حروفي تاريخه الثوري بكل ما فيه من نضال وصخب، جعلا منه علامة فارقة بين قواد فصائل الثورة الكبرى. كان يولج الليل بالنهار في الجبال، ولا يكاد

يغمض عينيه حتى يوقظه رفاقه مع طلوع الفجر، ليصدر الأوامر في يوم جديد لتعقب القوات البريطانية في كلّ مكان.

وكان يقول دومًا لأقربائه من آل أبو عمر، وهم يطوقونه بحبهم: سأستمر بقتال الإنجليز ما دام فيّ عرق ينبض.

أدرت في ذهني تخيلات كثيرة عن أيام القائد الكبير، وتساءلت بصوتٍ عالٍ، قبل أنْ يغادرنا عبد الحكيم وزوجته: «هل الثوار يموتون؟».

نظرتُ إليه وظلّت بعض الأفكار تعبث في تخيلاتي دقيقة بعد دقيقة، يتراكم بعضها فوق بعض، وتهبُّ بشدة كريح عاتية.

سألني عبد الحكيم:

- من قال هذه المقولة عن الثوار؟

فأجبته:

- لا أدعي أنها لي، أنا أسمعها بين الحين والحين عندما ترتقي روح قائد كبير كقائدنا إلى بارئها، ويعمّ الحزن في كلّ مكان، ويردّد مريدوه في خطبهم «الثوار لا يموتون».

رانت على وجه محدثي لمحة من حزن، ثم قال بصوت مثل قصف الرعد:

- الثوار الحقيقيون قِلَّة في تاريخنا الماضي والحالي، وقائدنا الكبير اعتصم بالنضال الحقيقي، بقلب ثابت طيلة ثورة 1936، ولم يحد قيد أنملة عن الطريق الذي اختاره لنفسه.

كانت كلماته نابضة بالعاطفة الصادقة لقريبه، رحبتُ بكلماته ترحيبا كثيرًا، ثم فتحتُ عينيّ، ونظرتُ إليه قائلًا:

- كم أتمنى أن يكون لقائدنا نصبٌ كبير أمام بيته القديم في بُرقة، حتى تذكره الأجيال الصاعدة، ويبقى وجهه مرسومًا في عيونهم، بصرف النظر عن اضطراب الأحوال في بلادنا.

شعرتُ بثقل يضغط على قلبي، لأنّني ككاتب أتقن رصّ الكلمات، وليست لي قدرة على تنفيذ أفكاري، أطرزها في سطوري، وأطلق صيحة إشفاق على نفسي لأنّهم في بلادنا لا يُقدِّرون كلام الكتاب مهما كان، حتى إنهم لا يجدون متسعًا من الوقت لقراءته، مهما أنفقوا غاية الجهد في صياغة كلامهم، واعتصموا طويلًا بحبل الصبر في مجرى حياتهم.

ابتسم ابن خالتي عبد الحكيم، ثم صعد مع زوجته إلى سيارته، وانطلق إلى بيته، ولوَّحتُ له بيدي في وقت كان به الليل، يُرخي سدوله على الرياض.

(11)

مساء يوم من أيام الخميس في شهر يناير 2022، خلال وجودي في الرياض، جهَّزنا أنفسنا أنا وزوجتي وابني لتلبية دعوة ابن خالتي عبد الحكيم، ومن محاسن الصدف أنني التقيت به لأنني سألتقي في بيته بعد قليل بحفيدين من أحفاد القائد البرقاوي الكبير.

كانت الطرق مفتوحة أمامنا وابني ينطلق بسيارته باتجاه المنطقة التي يعيش فيها مضيفنا في ذاك المساء، وسرعان ما أخذ يحدّثنا عن المناطق المأهولة التي نمرّ بجانبها ويرفق كلامه كعادته بتوضيحات تفصيلية كثيرة.

وبينما هو على هذه الحال، انجرفت أفكاري في مونتاج من الصور التي تلمع في ذهني مثل صور أفلام وثائقية مترابطة تطوف بي عبر مشاهد كثيرة، أخذت بتقليب أول صورة فيها، أبعدتني كثيرًا عن سياق كلام ابني، ووجدتها تجسد بُرقة بهضابها وتلالها وحاراتها وأهلها، وكلّ ما فيها. واصلت تأملها وأنصتُّ لصدى أيام ماضية من ثلاثينيات القرن الماضي، ورأيت على مقربة من غلالة أشجار سرو باسقة بوابة آل أبو عمر في الجهة الشرقية من القرية.

حدقتُ مطولًا بما أرى، ووجدت جمهرة من الناس يجلس بينهم على دكة عالية القائد أحمد ياسين الحمد، بجانبه قنديل بفتيلة طويلة تضيء له

ولرفاقه عتمة الليل. أدور ببصري حوله يمنة ويسرة وأسترجع صدى صوته، وأسمع صوته الجهوري وهو يحدث مجالسيه عن الهبّات والانتفاضات الفلسطينية السلمية والمسلحة، التي دار رحاها في فلسطين منذ بدء انتداب بريطانيا، منها ما دام أيامًا، ومنها ما استمر شهورًا، ومنها هبّة القسام التي رافقه فيها ستة عشر مجاهدًا من أتباعه، وقد اندلعت قبل أوانها في عام 1935. ودامت معركتها نحو أربع ساعات في أحراش يعبد القريبة من مدينة جنين، فاستُشهد فيها الشيخ القسام واثنا عشر مجاهدًا من رفاقه، واعتقل الإنجليز أربعة من المجاهدين الذين بقوا على قيد الحياة.

حدقتُ به ثانية في صورة أخرى، ووجدته يطوي ذراعيه وسط الظلام، ويقول لهم بحماس ظاهر إنه يستشعر اندلاع ثورة كبرى في كل قرى فلسطين، تمحو الوجود البريطاني للأبد، وينعم بعد ذلك أهلها بالحرية.

واصلت تخيلاتي وعدتُ مرات عدة إلى مونتاج الصور، واسترجعتُ صورًا كثيرة تعيها ذاكرتي مما سمعته من الكبار في بلدي عن القائد الكبير أحمد ياسين الحمد. تأكدتُ منها أنه كان موهوبًا ويمتلك قدرة على النظر إلى كل شيء حوله بأسلوب مغاير يتقنه، ويتميز بقدرات قيادية تزيد من صلته بالمكان الذي نشأ فيه، وتمكّنه من شدّ الناس إليه لتزويدهم بالمعلومات التي تهمهم لمعرفة ما يجري في وطنهم.

أعود مرة أخرى إلى مونتاج الصور، وأرى قائدنا في صورة مهمَّة كحلت عينيّ برؤيته وهو يمشي على الأقدام، من قرية إلى أخرى من قرى وادي الشعير المجاورة لقريته. وفي لحظة كان الضحى على وشك أن يرتفع فوق قرية بيت إمرين، التقى بشخص طويل القامة عريض المنكبين، وبعد أن صلى معه صلاة الصبح في مسجد القرية، جلسا معًا على مقربة من منبع عين هارون القريبة من قرية الناقورة، تحدثا عن ظلم الإنجليز لهم، وأقسما على المساهمة في إشعال الثورة ضدّهم. رفع البرقاوي يده وضغط على يد رفيقه عبد الحميد المرداوي أقصى ما يستطيع، وعاهده على الاستشهاد من أجل الوطن.

بعدها تساءلت ما بين نفسي ونفسي، ماذا فعلا بعد ذلك؟ تابعت تصفح الصور المخفية بكلتا يدي الراجفتين، ووجدتهما معًا في وادي التفاح في الجهة الغربية من مدينة نابلس، جالا جولة طويلة حول الأشجار الخضراء، ثم سارا بخط مستقيم نحو قرية بيت إيبا، والتقيا بشاب أمام بيت في أولها تبدو على محياه أمارات الطيبة وكرم النفس؛ قامته طويلة ويتسم بوسامة الرجال. دعاهما لشرب القهوة في بيته، ثم تحدثوا عن ظلم الإنجليز لشعبهم. عصفت به عاصفة ثورية هزت قواه، وحدجهما بنظرات مليئة غيظًا وحقدًا على المحتل البغيض، ثم شدّ ثلاثتهم أيديهم، وعاهدوا الله بشعور وطني لا حدّ له على الاستشهاد من أجل الوطن.

قال لهم الشاب البرقاوي، أحمد ياسين الحمد، وأمارات الصرامة على وجهه: «الثورة قادمة لا محالة، ستندلع قريبًا بين عشية وضحاها، وعلينا أن نشكل فصيلًا لنا، نقوده قيادة جماعية نحن الثلاثة، ونجند فيه من أصحاب الفضائل الوطنية، من المجاهدين الذين يقدِّمون أرواحهم فداء الوطن».

تهللت أساريرهم وانتظروا على أحرِّ من الجمر ساعة العمل.

واصلت السير في تقاطعات ذاكرة المكان، والأبطال الثلاثة يتجولون في قرى جبل النار، وأنا أجول ببصري حولهم، وأجد نفسي بينهم، وهم يختارون أفضل الرجال المقاتلين لفصيلهم الذي أطلقوا عليه اسم «مجد العرب».

لاحظت بينهم برقاويًّا اسمه أحمد القط أبو عمر، وبرقاويًّا آخر اسمه أسعد حمد أبو ذياب؛ شاب فارع الطول بعمر الورد، كان وحيد أمّه وأبيه، وله طلة خاصة به. رأيته وهو يصافح قادة الفصيل واحدًا واحدًا، ويفتح عينيه على ابن قريته أحمد ياسين الحمد، ويبتسم له ابتسامة عريضة، ويكرر بعدهم كلمات قسم الجهاد من أجل الوطن.

***

أكثر من ساعة غرقت فيها في بحور التخيلات، جسدتُ في خضم أفكاري بدايات قائدنا الكبير أحمد ياسين الحمد، رافقته في بواكير أيامه،

وحملقت في وجهه دون أن أرفع رأسي، واتخذتُ وضعًا يوحي بأنني لم أشعر بوجود أحدٍ معي في السيارة.

أفقت على صوت ابني، انتزعني من تخيلاتي، حين أخبرني أننا أمام بيت ابن خالتي عبد الحكيم. أوقف سيارته فترجلنا في الحال، وما هي إلا لحظات حتى كنا أمامه وجهًا لوجه، رحب بنا وظهرت علائم السرور عليه، ثم عرفنا على ابنه الدكتور عمر، ودعانا إلى التوجه نحو قاعة الجلوس. ومن حسن الطالع أنه دعا معنا ثلة من البرقاويين المقيمين في الرياض، منهم خالد حسن إبراهيم العبد الله، الذي يكون والده ابن خالتي ولم ألتق به من قبل، وزياد أحمد عيسى العبد الله ابن عم زوجة أخي، ولم ألتق به من قبل أيضًا.

حدثهم ابني عن التخيلات التي تلاطمت مشاهدها أمامي، وقلت لهم إنها تلاحقت بصور مؤثرة عن بُرقة وعن بدايات بطلها الثائر أحمد الياسين الحمد، تابعتها مندفعًا باهتمام زائد، وقلت للجالسين بصوت هادئ: «أنا لا أعتمد في كتبي ورواياتي على تقارير جغرافية وتاريخية جافة لا علاقة لها بالأعمال الإبداعية، بل أعتمد كغيري من الروائيين، على الخيال كأهم وسيلة يعتمد عليها العمل الإبداعي، في إطار تصورات عن حياة مضت ممزوجة بشواهد حقيقية، أو حياة قادمة ملفَّعة بافتراضات قابلة أو غير قابلة للحدوث».

علَّق عبد الحكيم بنبرة مرحة خبَّرَ بها ضيوفه بأنني بصدد البدء بإعداد جزء رابع يضاف إلى ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور»، وسوف يشتمل الجزء الجديد على سيرة القائد الكبير أحمد ياسين الحمد، أحد قادة ثورة فلسطين الكبرى 1936، كما سيشمل سيرة أستاذه الذي علمه حروف الأبجدية العربية في مدرستي البرج الحيفاوية وبُرقة.

استدار ابن خالتي عبد الحكيم نحونا أكثر فأكثر، ثم قال فرحًا: «بعد قليل سيصل حفيدان من أحفاد القائد الكبير؛ أحدهما اسمه أحمد والثاني اسمه إياد، ليحدثوا كاتبنا أثناء سهرتنا بما لديهما من معلومات عن جدهما، وأنا أعرف أنّ لديهما معلومات كثيرة، عندما يردّدونها ترتجف نبضات عروقهم.

طغت في تلك اللحظة على أحد الجالسين رغبة الكلام الجامحة عن حصار المستوطنين لبُرقة، وقال:

- عادت قريتنا في الأيام القليلة الماضية إلى صدارة الأخبار في مقاومتها لقوات الاحتلال.

وبعد مرور برهة وجيزة، قلتُ:

- قريتنا قرية الصمود البطولي، نعتز بها وبأهلنا الذين يقبضون على جمر الصمود منذ بداية الاحتلال.

(12)

لم أكد أنتهي من كلامي ويخيم الصمتُ على الجالسين، حتى دخل حفِيدا القائد الكبير، أحمد وإياد، كانا يبتسمان مبتهجين بالتعرف على برقاوي من الورّاقين بحث لعدة سنوات عن الجذور البرقاوية والحيفاوية في الشتات وفي أمكنة كثيرة في الداخل الفلسطيني.

كان ابن خالتي عبد الحكيم قد حدثهم عني، وتبعتني نظراتهم ثم تجاذبتُ معهم أطراف الحديث، وعبَّرت لهما عن تقديري ومحبتي للقائد الكبير جدهما، وما لبثت أن قلت لهما بصوت خفيض: «الثوار الكبار لا يموتون».

أردت بهذه المقولة التي يكثر ترديدها أنْ أقول لهما بأنني أشعر بأن جدهما يجلس معنا ويتابع حديثنا، ويتساءل عن قريته بُرقة الأثيرة على قلبه، التي أراد أن يسفح آخر قطرة من دمه للحفاظ عليها.

وهنا قال أحمد: «جدي أحبَّ بُرقة وأهلها حبًّا يجلُّ عن الوصف، كان يحدثنا في جلساتنا العائلية الخاصة عن كلّ أفراد عائلته؛ من الرجال والنساء والأحفاد الصغار والكبار، وكان يحدثنا عن طفولته كيتيم اعتنى به عمه حسين أبو فتح الله، وعاش في كنفه كأحد أبنائه، هو وشقيقاه محمد ومحمود».

ثم توسّع إياد بالحديث عن هذا الجانب بنفسية متفتحة، وأضاف قائلًا: «كانت مشاهد كثيرة من بيت عمّه تلاحقه من أيام طفولته، يذكر لنا دومًا بوابة آل أبو عمر، وأمكنة بيوت أقربائه الأقربين من أبناء عمومته آل فتح الله وأبو عيسى وخضير. كانت مشاهد الماضي تلاحقه في أحاديثه حتّى آخر لحظة من أيام حياته، عندما أتاه أجله المحتوم وهو في سنّ الثامنة والتسعين».

تحدث الحفيدان بكلمات مؤثرة، تطرقا بها إلى حبه لأهل بُرقة في موسم الحج إلى مكة المكرمة، وقد أدى فريضة الحج ما يقرب من أربعٍ وثلاثين مرة، مرتَيْن منها أدى الفريضة بالسفر على ظهر الجمال كما كان يفعل غيره في قوافل الحجيج في أيام ما قبل انتشار السيارات. وكان يحمل معه كل ما يلزمه من مستلزمات إقامة مخيم خاصٍّ به على مقربة من المسجد الحرام، وعندما يقيم مخيمه يصول ويجول بين القادمين من فلسطين لأداء فريضة الحج، وينادي بأعلى صوته باحثًا عن أهل قريته، وعندما يجد منهم بعض الحجاج لا يسألهم عن أسمائهم وأسماء عائلاتهم، بل يبادر للتعرف عليهم واستضافتهم في مخيمه ويقدم لهم الأكل والماء اللازم لهم باهتمام زائد، وفي الأماسي يحدثهم بعد أداء مناسك الحج، عن بُرقة في أيام شبابه ومنهم من كان يذكره ببطولاته النضالية أثناء الثورة الكبرى.

وفي هذا السياق استعرض إياد شريط مواسم الحج من جديد، مبينًا أنه في حالة عدم وجود حجاج من بُرقة، كان يحتفي باستضافة حجاج من القرى المجاورة لقريته التي صال وجال فيها في نشاطه الثوري، وكان يستضيفهم وينظر لهم بنظرة تمور بالمودة والمحبة.

لحسن الحظّ أنَّ أحمدَ وإيادًا، يتمتعان بذاكرة لا تعرف نسيان أي مشهد من مشاهد حياة جدّهما. كانا على التصاق دائم به في أيام كبره، ويسمعان كلّ واردة وشاردة من سجل حياته الطويلة، وخاصة المرحلة النضالية ومساهمته في الثورة الكبرى. وبينما كنّا نوشك على الصمت، شعرتُ بومضات ساطعة تضيء فجأة أفكاري، وفي الحال أمسكت قلمي، ووجهتُ أسئلة للحفيدين، وقبل أنْ أخطّ أجوبتهما بكلمات تفيض بالتأثر وصدق العاطفة، دعانا مضيفنا لتناول العشاء، واستجبنا لطلبه، والتفَّ الجميع حول مائدة عامرة، التقت عيوننا أثناء الأكل، وسطا علينا إحساس بضرورة الحديث، ودار حديثنا في مجمله حول اهتمام جدّ أحمد وإياد بأهل بُرقة المقيمين في السعودية، وتواصله معهم في أفراحهم وأتراحهم وفي كلّ مناسباتهم الأخرى، كان يحدثهم بحرارة عاطفية عميقة عن قريتهم بُرقة، بعبارات وحكايا تثير في نفسه أجمل المشاعر، وتشعرهم بكينونتهم ووجودهم وعمق جذورهم الوطنية.

حين أنهينا تناول وجبة العشاء عدنا إلى مقاعدنا، وأمسكت قلمي من جديد، وسألتهما عن بداية التحاقه بالثورة الكبرى سنة 1936، وسرعان ما أجابني إياد:

- شكَّل فصيلَه قبل اندلاع الثورة بوقت قصير، وكما ذكرت قبل قليل عن رفيقيه، فقد اتفق الثلاثة على قيادة الفصيل قيادة جماعية، وحرصًا منهم على كسب الوقت نظموا كل الذين انضموا لهم وكانوا بانتظار ساعة الصفر. وفي ليلة طغى بها صوت زخات المطر، اندلعت الثورة، وفي الحال وجَّهوا بنادقهم إلى صدور الجنود الإنجليز في كلّ مكان.

ما كاد ينتهي إياد من مداخلته، حتى رأيته يرتعش، وعيناه تبرقان بالفرح، نظرتُ إليه نظرة طويلة، ثم سألته:

- ما الذي أفرحك الآن؟

- أفرحني عندما تذكرت أنّ الفصيل الذي قاده جدي مع رفيقيه عبد الحميد المرداوي وسعيد بيت إيبا، قد أثار انتباه قائد عام الثورة، عبد الرحيم الحاج محمد سيف (أبو كمال)؛ الذي تنحدر أصوله من آل سيف بُرقة. وقد تابع نشاط القادة الثلاثة، وقرّر أن يقربهم من ديوان قيادة الثورة، لمساعدة القيادة العامة على اتخاذ القرارات اللازمة، ضمن التخطيط العملياتي وتنفيذ الخطط الصائبة في ميدان القتال.

رفع إياد إلى فمه فنجان قهوة عربية، وارتشف قطرات منها. وتبعه الجميع بما فيهم مضيفنا، بارتشاف القهوة الممزوجة بحب الهال المطحون، وفجأة سألته عن إنجازات فصيل جده في مجال مساعدة ديوان الثورة، وبعد أنْ ران صمت مطبق الحضور، تحدث الحفيدان وتابعا القول حول دور كبير لفصيل «مجد العرب» في معركة نور شمس وعنبتا، وقد أعدت القيادة العامة خطة لمعركة كبيرة شارك فيها القائد العام (أبو كمال) والشاعر الكبير عبد الرحيم محمود ابن عنبتا، كانت لحظات ثقيلة لمعركة اشتد وطيسها في الميدان حققت فيها الثورة نصرًا مبينًا.

وباهتمام كبير، راح إياد يتصور نتائج المعركة كأنها حدثت بالأمس، وأكّد أنّ نصرها قد شجع القادة الثلاثة على زيادة اهتمامهم بملاحقة العدو في كل مكان، وتمكّنت الثورة بفضل فصيلهم «مجد العرب» من تحقيق النصر في معارك أخرى كمعركة عصيرة الشمالية، ومعركة بلعا الأولى التي تعتبر أول عملية منظمة بين الثوار والجيش البريطاني، قُتل فيها عدد كبير من الجنود والضباط الإنجليز وسقطت فيها أربع طائرات عسكرية بريطانية، وتمكن الثوار من نسف عشرات المصفحات للعدو، والاستيلاء على كميات كبيرة من الرشاشات والبنادق وآلاف الطلقات.

اعترت إيادًا موجةٌ من الذكريات التي سجلها عن جده، وانطلق صوته بشكل واضح جليّ، وتحدث عن معركة بلعا الثانية، ثم التفت الجميع نحوه بانتباه كبير، عندما أخذ يتحدث عن معركة بُرقة بيت إمرين، التي

تعتبر من أشهر معارك الثورة التي خاضتها ضدّ الجيش البريطاني المدجج بأحدث أنواع الأسلحة.

قلتُ بعد أنْ تفوَّه بهذه الكلمات: «هي معركة من أهم المعارك التي دارت في بداية مسيرة الثورة الكبرى، خاضها ثوار فلسطين مع الجيش البريطاني على امتداد منطقة واسعة بين جبال بُرقة وبيت إمرين، استمرت ثماني ساعات متواصلة حتى خيَّم الليل وتوقف عندها القتال، سقط شهداء من مجاهدي الثورة، مزجوا دماءَهم بمياه وادي الشامي القريب من بُرقة، وقَتَل الثوار مجموعة من جنود الإنجليز، وأشعلوا النار في مصفحات ضخمة، وأسقطوا طائرتين حربيتين».

أوقفني إياد عن الكلام، وقدَّم معلومة على جانب كبير من الأهمية، قائلًا بفخر كبير إنّ جده كان من ضمن المجاهدين الذين برزوا في تلك المعركة.

رفعتُ رأسي بعض الشيء، وقلتُ لإيادٍ بإيحاء من أوراق قرأتها من قبل، تضفي عليها معلومات قديمة: «إنّ إحدى الطائرتين أسقطها جدّك، وقد نشرت جريدة الجهاد اسمهُ حينذاك في تقريرها عن المعركة، كما نشرت اسم قائد الطائرة الذي لقي مصرعه، واسمه س. وايت».

ودارت في رأسي أفكار سريعة عن تلك المعركة، وشعرت بأنّ الدنيا كلّها في ذلك الزمن البعيد، قد كانت بأسرها ملك القائد الكبير أحمد ياسين الحمد، وأصبح بإسقاطه طائرة العدو منتصبًا مرفوع الرأس شامخ الأنف، له مركزه الرفيع في مقدمة أبطال الثورة.

(13)

نظر إليّ إياد في لحظة جرى فيها هواء منعش من نافذة مفتوحة في قاعة الجلوس، فتحها مضيفنا صاحب البيت، وأدركت على الفور أن لديه ما يضيفه عن جدّه، هززتُ له رأسي مبينًا أنني كلي آذان صاغية له، وبعدها نطق قائلًا:

- شهد لجدي الجميع بما قام به بقدر من الشجاعة والإخلاص والتفاني، وذاع صيته بين فصائل الثورة، وكان يردّد لنا أشعارًا عن المعركة التي شارك بإشعالها، بصوت ملؤه الحزن على شهدائها رفاقه الثوار البررة.

سمعته جيدًا بأذن غير شاردة كما هي حالي في أغلب الأوقات، وسألته في الحال:

- هل تذكر أبياتَ الشعر التي كان يردّدها؟
- للأسف لم أسجلها، وربما عمَّتي فاطمة قد حفظتها منه من كثرة ما ردّدها، لأنها تستمتع بحفظ الشعر الشعبي الذي يرنُّ في الأذن كما ترنُّ الأغاني الشعبية في بُرقة.

قلتُ:

- قيلت في المعركة أشعارٌ كثيرة خلَّدتها على مدى الأيام، وأنا أحفظ أهمها التي كانت تغنيها أمي وهي تبكي حُزنًا على الشهداء الذين سقطوا في المعركة، كانت كلماتها:

«بين بُرقة وبيت إمرين
صار إشي عمره ما صار
صار ضرب المراتين
معركة مثل حطين
أشعلها المرداوي
والقائد أحمد ياسين
واجت فزعة من جنين
من أبطال الفلاحين»

صرخ إياد قائلًا:

- هذه الكلمات التي كان يرددها جدي، يفتح عينيه ويستعيد نشاطه عندما يرددها، ويحمرُّ وجهه عندما يتذكر رفاقه الذين سقطوا في ساحة القتال، ويؤكد أنه ثَأَرَ لهم قبل دفنهم بإسقاط طائرة العدو، ويخفق قلبه عندما يذكر كيف سقط طيارها منها والنار تتطاير منه في كل الجهات.

استشهد فيها أحمد القط (أبو عمر) بعد عرسه بأيام قليلة، وتمّ دفنه خلف بيت القائد أحمد ياسين.

سألته باهتمام زائد:

- كيف استقبلَتْ بُرقة جدَّكم بعد انتهاء المعركة؟
- أصدر ديوان الثورة بلاغًا مصدَّقًا من القائد العام للثورة (أبو كمال)، علم الجميع منه ما قام به جدي من بطولة خارقة، وأراد

أهل بُرقة مصافحته وتلمُّسَ دقات قلبه لأنه من القادة الكبار في الثورة. وفي الحال اتجه لزيارة بُرقة في ليلة مقمرة، تحرَّك موكبه المهيب بعد ذلك، تتقدمه الدفوف والطبول والقناديل والمشاعل المضيئة التي رفعها أهل قريته ورفاقه الثوار، وفي مقدمتهم القائد عبد الحميد المرداوي والقائد سعيد بيت إيبا.

ضم القائد الكبير قبضة يده اليمنى بأقصى ما يستطيع، وصافح الجميع أمام بوابة آل أبو عمر في الحارة الشرقية. صافحه كلّ رجال القرية بدون استثناء لأنه واحد منهم، وزعقت النساء بأعلى أصواتهن وهن يغنين لازمة «أيي» ويمسحن دموعهن من شدة الفرح.

وبينما كان الجميع يسمعون غناء الماجدات البرقاويات، غامت عيناه وشعر بقرب ساعة النوم. وفي الحال انسحب مع رفيقيه عبد الحميد المرداوي وسعيد بيت إيبا، واشتدَّت سيقانهم وهم يتسلقون التلال للوصول إلى مغارة آمنة تقيهم زخات المطر، وينامون فيها حتى صباح اليوم التالي.

على الرغم من قسوة الحياة في المُغر المعلَّقة على رؤوس التلال، فإن حياة القادة الثلاثة كانت محصورة في مُغر قرى وادي الشَّعير، ينامون فيها في حبور، بجانب الأفاعي والعقارب والضباع، حالهم حال بقية الثوار بمن فيهم قائدهم العام أبو كمال، الذي كان يقضي ليله ونهاره في قيادة

الثورة في المغر؛ يبقى فيها في فصل الشتاء ليتقي سقوط المطر وزمجرة الريح، ويتقي في الصيف قيظَه الشديد.

انقضى الليل، وأفطر الثلاثة على حبات تين من شجرة عالية قرب المغارة، من شجر التين العجلوني الذي يتأخَّر نضجه حتى بداية الشتاء. وبعد أن فرغا من تناول وجبة الإفطار، تساءل المرداوي على سبيل التندر والفكاهة وهو يضغط على شفتيه: «هل يستطيع أحد أن يعيش عيشتنا القاسية غير الثوار؟ نبتعد عن أسرنا، ونتمدد في المغر على ركام تراب أرض جافة، بدون أغطية صوفية، وفوانيس تضيء ظلمة الليل؟!».

سرعان ما ضحك القادة الثلاثة، وقالوا بصوت واحد: «من أجل ثورتنا نعيش في المغر والأماكن الخطرة، لكي نحقق الحرية والاستقلال لشعبنا».

حمل الثلاثة بنادقهم عندما شاهدوا عن بعد شخصًا يتجه نحو مغارتهم، وتأكدوا بعد أن رأوه أنه برقاوي من أصدقائهم، اسمه حمد أبو ذياب والد ثائر من ثوار فصيلهم. دخل عليهم وهو مقطب الجبين، وعلى وجهه علائم الحزن، وقال لهم بصوت مرتجف إن ابنه أسعد أطلق النار على قوة كبيرة من قوات البوليس البريطاني، ودامت المناوشات معهم نحو ساعة، وعندما اشتدَّ إطلاق النار طوقوه ثم أمسكوه وجروه مكبَّلًا بالأصفاد خلف حصان، حتى سجن القلعة في عكا.

تألَّم القادة الثلاثة لما حلّ برفيقهم أسعد، وقرروا التوجه إلى القائد العام للثورة في مغارة تقع على سفح جبل قرب جسر قرية رامين، وحين

دخلوا ديوان الثورة سمعوا خبرًا بصوت مضطرب مفاده أن أسعدَ قد قُتل شنقًا في سجنه. بكاه والده بحسرة، وبكاه القادة الثلاثة، وفي الحال أصبح والده حمد أبو ذياب مجاهدًا ثائرًا ضمن ثوار فصيلهم المسمّى «مجد العرب».

وفي مثل لمح البصر توجه حمد أبو ذياب مع قادته الثلاثة إلى قرية بيت إمرين، في أول مهمة له يرافق فيها ابن قريته القائد أحمد ياسين الحمد، وقد قطع عهدًا على نفسه أن يثأر لوحيده أسعد في معارك الثورة. وصلوا بعد فترة من الوقت قرية بيت إمرين، وحانت لحظة الافتراق، عبد الحميد المرداوي وسعيد بيت إيبا اتجها إلى أعلى قمة الجبل القريب منهم، ودخل القائد أحمد ياسين الحمد وحمد أبو ذياب القرية، لشراء ما يلزمهم من مستلزمات الأكل والشرب في المُغر والجبال، كانا يلبسان اللباس التقليدي: القنباز والكوفية البيضاء والعقال؛ لباس أهل فلسطين في القرى.

استأنفا التنقل بين الدكاكين المعدودة، وبينما هما يسيران ببطء، طوَّقت مجموعة من البوليس البريطاني القرية من كلّ الجهات. حاولا اختراق الطوق المحكم، وحده حمد أبو ذياب تمكن من اختراقه وتحرير نفسه، ثم سار إلى أعلى الجبل وهو يحمل ما تم شراؤه من مستلزمات من دكاكين القرية.

اشتدَّ الطوق على القائد الكبير أحمد ياسين الحمد، وبينما كان الغضب ينهش أحشاءه، مرَّت لحظات ثم ركز على نقطة متراخية في

الطوق واخترقها بكامل قوته وهو يزأر بأعلى صوته، ملقيًا الرعب في قلوب الجنود الإنجليز، ثم صعد إلى أعلى الجبل وانطلق كالسهم نحو الصخور، وانضم إلى رفاقه في مثل لمح البصر.

وعندما ثاب إلى نفسه، أشعل معهم معركة حامية طيلة ثلاث ساعات، وطغت عيناه ببريق النصر عندما تأكد أن الموت قد ألجم عشرات الضباط والجنود من الأعداء، وأصبحوا مجرد أكوام جيف للطيور الجارحة.

بعدئذ اجتمع حوله رفاقه وأسمعوه أناشيد وطنية، وهو بينهم كمصباح يضيء مسار الثورة الكبرى.

وبينما كان حفيده إياد يروي تلك القصة، استوى في جلسته، وأضاف قائلًا: «عرف جدي بفراسته أن معركة اختراق الطوق فريدة من نوعها، ولا بد من تعريف كل فصائل الثورة بها».

ثم أضاف: «وما هي إلا فترة قصيرة حتى أملى جدي تقريرًا مفصَّلًا عن المعركة، سجَّله أحد رفاقه، ثم أرسله إلى ديوان الثورة، وأخيرًا صدر ببلاغ رسمي بتوقيع القائد العام للثورة، وتم توزيعه على كل الفصائل».

ولم يكد يتم كلامه حتى قلت: «وبهذا أصبح قائدنا في مقدمة قادة الثورة».

(14)

فور أن أنهى إيادٌ حكايته أشار لي ابني أنّ الليل على وشك الانتصاف، وفي الحال رمقه مضيفنا مبينًا أنّ غدًا الجمعة يوم العطلة الأسبوعية، ويمكننا سماع حكاية أخرى من الحكايا التي سمعها من جده القائد الكبير.

فكَّر إياد في أعماقه وشعرتُ كأنه يرى جده أمامه، ويُسرع الخطى معه في مكانٍ ما من جبل النار، قرب شارعٍ ما بين جبلين تمرّ فيه قافلة إمدادات ضخمة للجيش البريطاني في أوقاتٍ حدَّدَها بأنها ثلاثة أيام كل أسبوع. صمت بعض الوقت ثم قال بعد لحظات معدودة:

- قرّر جدي ورفاقه، إشعال لهيب معركة في الوقت الذي تمر خلاله القافلة.

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة؛ لأن جده هو الذي وضع خطة محكمة للمعركة، وعلى ضوء خطته، تمّ دفن كمية كبيرة من الألغام في وسط الشارع، ثم استحكم الثوار فوق قمة الجبلين، وعند مرور القافلة تفجَّرت الألغام، وأغار خمسة عشر ثائرًا من فصيل جده على القافلة، قصفوها بالرشاشات التي أخذت تدوي دويًّا كالرعد، وكان لهم ما أرادوا، حوَّلوا خمس شاحنات ضخمة إلى كتل حديدية، وأشعلوا

صهريج البنزين، وعمَّ لهيبه مكان المعركة على اتساعها، وتطايرت شظايا أجساد ما يقرب من ثلاثين ضابطًا وجنديًّا من الأعداء.

لاحقتني في تلك اللحظة ذكرى معركة حدَّثني عنها ذات يوم ابن خال أمي من ثوار سيلة الظهر، اسمه عبد المجيد عوض، واشترك فيها مع القادة أبي خالد السيلاوي وأحمد ياسين الحمد وعبد الحميد المرداوي، وسعيد بيت إيبا، وقررت أن أرويها في جلسة قادمة.

تلت ذلك برهة من الصمت، وكنّا نطفح بالسعادة على ذكرى عملية تستحق الخلود والتمجيد. بعدها نهض الجميع، وأكد أحمد وشقيقه إياد على اللقاء ثانية في مساء الخميس القادم، في بيت إياد لتناول العشاء معهما، ومتابعة أخبار جدهما.

خرجنا كلّنا؛ كلّ واحد منا تلو الآخر، وقد ازدادت دقات قلبي سرعة، لكل ما سمعته من الحفيدين عن بصمات جدهما القائد الكبير في مسارات حياته التي تضيء لنا ظلمة أيامنا الحالية في زمن الاحتلال.

***

في اليوم التالي، كانت الشمس تلقي نورًا خافتًا على الشرفة التي أجلس عليها في الصباح. وضعت حاسوبي أمامي، وشددت أشرعتي نحو الماضي، ووجدت حكاية ابن خال أمي عبد المجيد عوض منقوشة في ذاكرتي، شعرت أن مؤثراتها منسوبها عالٍ، وأخذت أسجلها كأنني سمعتها بالأمس.

ومفاد الحكاية أنّ ثوارا من فصيلين من فصائل الثورة، أحدهما فصيل القائد أبي خالد السيلاوي، ومساعده عبد المجيد عوض من سيلة الظهر وهو ابن خال أمي، والفصيل الثاني «مجد العرب» بقيادة القادة: أحمد ياسين الحمد، وعبد الحميد المرداوي، وسعيد بيت إيبا، اكتشفوا منطقة بين جبلين متقابلين تمرّ عبرهما القطارات القادمة من حيفا إلى مدن كثيرة في الجهة الجنوبية من فلسطين. استيقظوا من تأملاتهم بأهمية تلك المنطقة، ثمّ تحدثوا بنبرة واضحة حول ضرورة القيام بعملية كبرى فيها. وفي الحال قرّروا تنفيذها بين الجبلين لنسف قطار يمر مرة واحدة في كلّ أسبوع، يَحمل مجموعة صهاريج ضخمة مليئة بالبنزين المنتج في مصفاة حيفا التي أُنشِئت أثناء اندلاع الثورة، ويشحنها القطار إلى ثكنات الجيش البريطاني المنتشرة في كل مكان في فلسطين.

تذكرت ابن خال أمي عبد المجيد عوض، وهو ينحني في جلسته ناظرًا في عيوننا، أنا وأمي وأبي، وأحسست بالدهشة عندما قال:

- قمنا كلنا قادة الفصيلين، مع ثلاثة عشر ثائرًا من رفاقنا، بزرع الألغام تحت خط سكة الحديد في الوقت المناسب، ثم رابطنا بين الأشجار المنتشرة في أعلى الجبلين المتقابلين، ومعنا أسلحتنا التي تحتوي على البنادق والرشاشات الخفيفة والألغام.

مرَّت بضع دقائق على هذا المشهد، ثم اندفعت الكلمات من فم محدِّثنا مصحوبة بتفاصيل عن تنفيذ العملية، وأصغى الجميع له، واعتراني شعور بالسعادة عندما قال:

- طار القطار عاليًا من شدة الانفجار بفعل الألغام، واشتعلت صهاريج البنزين، وهرب من بقي على قيد الحياة من الضباط والجنود الإنجليز، ولحق بهم رفاقنا من الثوار وأصلوهم بنيران رشاشاتهم، مزقوهم ولم يبق منهم أحدٌ.

تابع عبد المجيد عوض حديثه رافعًا رأسه إلى أعلى، وهو يصف ألسنة النيران المتصاعدة من المعركة، وأعمدة الدخان غير العادية التي انتشرت على اتساع مساحة واسعة من القرى والمدن المجاورة. ورآها مستر فوت من مكتبه في الجهة الشرقية من نابلس. ثقُلَت الرؤية في عينيه، وتطلع حوله فأكَّد له ضباطه أنّ الأبطال الثلاثة قادة فصيل «نهضة العرب»: أحمد ياسين الحمد وعبد الحميد المرداوي وسعيد بيت إيبا، قد تجاوزوا كلّ الحدود في بطولاتهم غير المسبوقة.

أسعدني تسجيل هذه المعركة في أوراقي التي تحفظها ذاكرتي بكل حيثياتها حتى الآن، وأحس بها في لجة سطوري، شبيهة بما ذكره إياد عن المعركة التي حدثنا عنها في بيت ابن خالتي عبد الحكيم.

***

كنت أشد قبضتي وأنا أقرأ ما سجلته على أوراقي من حكايا قالها الحفيدان أحمد وإياد عن جدهما. أدهشتني تفاصيلها، ورفعت رأسي مرات عديدة، وأخذَتْ حرارة الرياض الدافئة تنساب إلى جسمي، وأنا أردّد على مسمع أحفادي بعض الحكايا التي سمعتها من إياد وشقيقه أحمد. وبذلت جهدًا كبيرًا لتوضيحها لأحفادي، علها تقفز في أذهانهم عندما يكبرون، ويحسّون بدفء الوطن.

مرت الأيام وانتهى الأسبوع وأطلَّ مساء الخميس، وما لبثت أن بدأت تجهيز نفسي للسهر في بيت إياد، واستعد ابني للخروج، ثم انطلقنا معًا في الشوارع المزدحمة. ساد الصمت بيننا، ثم سألني ابني:

- هل سيُسمعنا إياد حكايا مدهشة كالتي سمعناها منه يوم الخميس الماضي؟

توقفت عن الكلام برهة ثم أجبتهُ:

- بالتأكيد؛ لأنه يتحدث عن جده، وعواطفه تحمله إليه في كلّ لحظة على مدار الأيام.

بعدها وضعت يدي على صدري، على نحو يعبّر عن سعادتي بسماع كلّ ما يقوله الحفيد إياد عن بطولات جده وتفانيه من أجل وطنه التي تتحرك بسرعة لا توصف على شاشة ذاكرته المتوقدة، ويتحدث عنها كأنها حدثت أمام عينيه بالأمس.

(15)

ارتسمت على فم ابني ابتسامة الرضا وردّد قائلًا:

- ها هو إياد ينتظرنا أمام بيته.

أوقف ابني سيارته وترجلنا منها، وسار إياد باتجاهنا مرحِّبًا بنا، وبتنا ثلاثتنا قاب قوسين أو أدنى من قاعة الجلوس. دخلناها وعرَّفَنا على مجموعة من أهله. قدَّمَ لي في البداية شقيقه مصعب، وهو متزوج من عرابة ابنة خالد الزبري قريب الشهيد أبي علي مصطفى. وقدم لي شقيقه ثامرًا، وهو متزوج برقاوية والدها طارق فريد السعيد شبيب، وفاجأني بمعلومة لم أتوقعها، مفادها أنّ عمّه المرحوم عبد اللطيف قد تزوج من قريبة لي هي ابنة ابن عمي خالد الفايز مسعود، وتابع تعريفي ببقية الحاضرين، ثم استأنف حديثه عن شقيقه أحمد بأنه خارج الرياض لسبب حُدّد سابقا، وكان بودّه أن يراني ثانية في هذا المساء.

بعدها جلسنا على مقاعدنا، وارتشفنا قطرات من القهوة العربية، وسرعان ما أحسستُ بشعور مفعم بحب المعرفة، لما جرى بعد واقعة قطار البنزين الذي أسهم الجد بحرقه بين الجبلين المتقابلين، وفي الحال سألت إيادًا:

- ماذا حصل بعد انتصار الثورة في واقعة الجبلين المتقابلين؟

أجابني:

- عمّت الفرحة كلّ قرى ومدن فلسطين، واعتبرها القائد العام للثورة من أنجح العمليات الميدانية التي تمّ تنفيذها، ونال بها جدي قصب السبق، وأطلقوا عليه اسم أحمد الحاج ياسين، بدلًا من اسمه المتعارف عليه من قبل؛ أحمد ياسين.

راقت لإياد فكرة التحدث عن ردّ فعل الجيش البريطاني لتكبده خسائر فادحة بالأرواح، خاصة عندما تأكد مستر فوت، القائد العسكري للواء نابلس، بأنّ وراء العملية جده القائد أحمد ياسين الحمد وفصيله «مجد العرب» الذي تبنى العملية، وأعلن عن موقفه للصحافة، واعتبرها بمثابة عملية مهداة للبطل البرقاوي أسعد حمد أبو ذياب؛ الذي نُفِّذ به حكم الإعدام شنقًا في سجن القلعة في عكا.

وعليه جال مستر فوت مع جنوده المدججين بالسلاح، في كل جبال وتلال قرى وادي الشعير، في بحث ميداني موسع عن جده ورفيقيه عبد الحميد المرداوي وسعيد بيت إيبا، في وقت كانوا يختبئون فيه في مغارة على مقربة من قرية ياصيد. حامت حولهم قوات حاكم لواء نابلس وهم قابعون في المغارة، ثم طلب ضابط كبير من جنديين أن يدخلا المغارة للتأكد من وجود القادة الثلاثة المطلوبين فيها، وقد قال أحدهما للآخر بعد اجتيازهما باب المغارة:

- علينا ألّا ندخل أكثر في عمق المغارة، لأنه في حالة وجودهم سيقتلوننا حال دخولنا.

وافقه الجندي الثاني، وخرجا وأخبرا الضابط بأنه لا أثر لأحد في داخل المغارة، وفي نهاية المطاف عاد مستر فوت بخفي حُنين إلى مقره في نابلس. أطرق بعينيه أمامه على الأرض، وشعر بالمذلة وباضطراب هزّ بدنه، وأخذ يضغط بقوة على أصابعه، لأن القادة الثلاثة إياهم قد حوَّلوا قيادته إلى مسرحية فاشلة.

تفحَّص بنظراته كل الذين حوله في مكتبه، وقال بصوت متهدج:

- ثلاثة من الفلاحين الجهلة يهزون عرش بريطانيا في قرى وادي الشعير.

ابتسم إياد وتطلع لي قائلًا:

- لم أسمعه لأنني لم أكن على قيد الحياة حينذاك، لكنَّ غضبه وأعصابه الثائرة التي وصفتها صحف ذلك الزمان، تؤكد أنه قال تلك الكلمات بعصبية شديدة.

زادت عصبيته وانفعاله عندما خفق نبض الثوار بعد أيامٍ معدودة، فقد نفَّذوا عملية على مقربة من مكتبه، مترعة بأكفان ضباطه وجنوده. وقد نفذها قادة فصيل «مجد العرب» الثلاثة: أحمد ياسين الحمد، وعبد الحميد المرداوي، وسعيد بيت إيبا. رابطوا في استحكاماتهم بين أشجار وادي التفاح في الجهة الغربية من نابلس، مع مفرزة من فصيلهم، وقبل مساء ذلك اليوم بقليل، هاجموا قافلة كبيرة كانت متجهة إلى داخل مدينة نابلس. اشتبكوا معها في معركة حامية أطلقوا فيها الرصاص من كل الجهات، وأسفرت المعركة عن عدد كبير من القتلى والجرحى،

وانسحب الثوار بسلامٍ، وأسرعوا في تسلُّق الجبال نحو عصيرة الشمالية، ومنها اتجهوا إلى طمون، وغابوا عن الأنظار فترة من الزمن.

بعدئذٍ عاد القادة الثلاثة ومفرزة من فصيلهم «مجد العرب» من طمون واتجهوا إلى منطقة جبلية قرب وادي راشين، من أراضي بُرقة وبلعا، على مقربة من خط سكة الحديد.

كان عددهم خمسة عشر مجاهدًا، دفنوا كمية كبيرة من الألغام تحت خط سكة الحديد، ثم رابطوا في كمين على سفح جبل قريب، وبعد فترة قصيرة قدِمَ قطار محمَّلٌ بالذخائر العسكرية، ويجر خلفه سبعة صهاريج ضخمة مليئة بالبنزين المنتج في مصفاة حيفا.

وبينما كانت صافرة القطار تلعلع بصوتها العالي، تفجَّرت الألغام وتحوَّل القطار بما فيه من ذخائر وضباط وجنود إلى أجزاء متناثرة على اتساع المكان، وبلغ لهيب البنزين المحترق ارتفاعًا عاليًا، وأخذ جنود العدو الذين بقوا على قيد الحياة يصيحون من شدة جراحهم، لكن المجاهدين نزلوا من كمينهم، وحوَّلوهم إلى أشلاء تحت وابل رصاصهم، ولم يبق أيٌّ منهم على قيد الحياة.

تقدَّم القائد أحمد ياسين الحمد خطوة من رفيقيه، عبد الحميد المرداوي وسعيد بيت إيبا، وقال لهما:

- معركتنا هي المعركة الثانية التي حوَّلنا فيها القطار إلى ركامٍ من الحديد الصدِئ.

التفت الاثنان إليه، وقالا:

- إنها تجربة مهمة، لا بدّ أن تتبعها كل فصائل الثورة.

بعد تلك المعركة، أدرك الثوار في زحام المعارك، أهمية توجيه ضرباتهم للقطارات وأعمدة وأسلاك الهاتف والبور، وكل ما نسميه في زماننا «بنى تحتية».

وهكذا أسهم قادة فصيل «مجد العرب» الثلاثة، في توجيه معارك الثورة وجهة جديدة، تمكنوا بها من امتصاص رحيق النصر.

ابتسم إياد فرحًا بإنجازات جدّه المذكورة في الوثائق البريطانية، وانطلقت من فمه كلمات عبرت عن شغفه بكل ما ذكر عنه، ليغمر قلبه بالسعادة الدائمة.

رفع حاجبيه وهزّ رأسه سائلًا:

- هل حاولتَ الخروج من الطوق الروائي المحكم الذي نسجتُهُ حول إنجازات جدي الثورية؟
- تركت لخيالي أن يلامس حياته بعناية فائقة، كما لامس الروائي الروسي تولستوي دفق حياة قادة روايته «الحرب والسلام»، وما صنعوه من فواعل تاريخية.

استسلمت في تلك اللحظة للضحك، واعترفت له بأنه من السخف أن أشبه نفسي بالروائي تولستوي، فأين أنا منه؟ لكنني أكدتُ له أن جده لا يقل قدرًا في أي حال من الأحوال، عن قدر قادة رواية «الحرب والسلام».

احمرَّ وجهه وشعرتُ أن كلماتي قد غمرت كلّ أوصاله، وكانت عيناه تشعان بالسعادة.

(16)

أسند إياد رأسه على أعلى جزء من مقعده، ثم سألته:

- هل من عملية سمعتها من جدك، قام بها قادة فصيل «مجد العرب» الثلاثة ضدّ القوات البريطانية، انتصروا فيها في ساحة القتال، بفضل رصاص بنادقهم وتضحياتهم الغالية؟
- أجل، قاموا بعملية على مقربة من مكتب مستر فوت الحاكم العسكري للواء نابلس، كان يسردها جدي لنا على سبيل الفكاهة والتندر، ويذكرها بمشهد مؤثر يؤكد فيه تطاير الشرر من عيني القائد الإنجليزي عندما نُفِّذَت في بيت إيبا.

التقت نظراتي بنظراته ثم افترقت، وشعرتُ أنه يرى تفاصيل تلك العملية في مرايا سحرية مخفية. نهض منتصبًا في لحظة، وانفجر ضاحكًا، ثم بدأ سرده قائلًا:

- تأكد للقادة الثلاثة أن أهم حارس لمستر فوت يتخفَّى في بساتين بيت إيبا، وهو من أخطر الحراس الذين جنَّدهم الإنجليز ضد الثورة. حاولوا قتله مرات عديدة ولم يتمكنوا منه، لقدرته على التخفي بألبسة مختلفة. وذات يوم عرفوا أنه يهوى ملاحقة النساء في كلّ المناسبات.

نظرت إليه مليًّا وتساءلت:

- هل وضعوا خطة لقتله على ضوء هذه المعلومة.

فأجاب بكل بساطة:

- أجل، وضعوا خطة محكمة، كان سعيد بيت إيبا على أهبة الاستعداد لتنفيذها، وما لبث أن نفذها بلبسه ثوب امرأة طويل لامع، وتثبيت خلخال فضي في أعلى قدميه، يُسمع صوت رنينه عن بعد، وتوزيع نظراته من تحت غطاء وجه حريري شفاف، تارة على المارة من الناس وطورًا على الأشجار الكثيفة في البساتين المجاورة.

بدا وكأنه يبحث عن خليل له، وبينما هو على هذه الحال اقترب منه الحارس الإنجليزي الشهير، وسارا معًا على مهل حتى وصلا إلى بستان مكتظ بالأشجار خالٍ من الناس، وبعد لحظات معدودة أخرج سعيد مسدسه من تحت ملابسه النسائية، واخترق صوته ستائر الصمت قائلًا:

- هذا جزاء الإنجليز أعداء شعبنا. اليوم أنت وغدًا سيتم قتل أسيادك.

أطلق عليه الرصاص، ورماه جيفة للكلاب المسعورة.

مرّ عليه الناس وهو مرمي على الأرض، لم يلتفتوا له، لكن مستر فوت جُنَّ جنونه عندما سمع خبر مقتل حارسه المفضل، وزاد جنونه عندما قرأ الرسالة المثبتة على صدره، ووضحت كلماتها أن قتله بمثابة ثأر لشنق

القائد المجاهد فرحان السعدي وهو صائم في شهر رمضان، في سجن القلعة في عكا.

أمر القائد البريطاني الفاشل، أن تنتشر كلّ قواته في قرى وادي الشعير، وأن يحكموا الطوق عليها لاعتقال القادة الثلاثة الذين كانوا في طريقهم إلى عكا، للاتصال بقيادة الثورة فيها، لتنفيذ أمر كان مختمرًا في نفوسهم.

ثم أضاف إياد بنبرة مؤثرة:

- التقوا برفاقهم الثوار العكاويين في يوم تغطى به سجن القلعة بطبقة كثيفة من الضباب. وفي الحال قدَّموا لهم معلومات استخبارية مهمة عن تحركات الجنرال لويس أندروز حاكم لواء الجليل، المشهور بتقديمه مساعدات مهمة للصهاينة مكنتهم من إنشاء مستوطنات كبيرة في صفد وبيسان ومنطقة الحولة، ومناطق أخرى على اتساع الجليل.

انتهت مهمتهم وعادوا إلى منطقتهم، وعندما اقتربوا من منطقة القائد العام (أبو كمال)، تلقوا نبأ اغتيال القائد البريطاني المجرم قتلًا بالرصاص أمام الناس في مركز مدينة الناصرة.

بعد ذلك التقى بهم القائد العام وطلب منهم الابتعاد عن الأنظار؛ لأنّ مستر فوت يحمِّلهم مسؤولية ملاحقة الجيش البريطاني على امتداد كلّ فلسطين. وطلب منهم التركيز في نشاطهم بشكل رئيسي

على مراقبة المركز البريطاني المشهور في ترسلة، قرب جبع وسيلة الظهر.

تقابلت عيونهم بعد خروجهم من ديوان الثورة، وقرروا الاستجابة لأوامر القائد العام لفترة من الوقت ظلّوا فيها نشطاء في العمل الذي حدده لهم، ولم يحرك فيها أحدهم ساكنًا في مجال القتال. بعدها اتفقوا على أمر يُخفي زهوًا وكبرياءَ، يتلمَّسُهُ الثوار في العمل الميداني، حتى لا ترتخي أيديهم عند إطلاق الرصاص، واتفقوا على هدف واحد هو اغتيال مستر فوت لإلحاقه بالمجرم أندروز.

حاولوا اغتياله ثلاث مرات متتالية، لكنه نجا منها بفضل حراسه الكثر، الذين بدلوا نُظُمَ حياته وأخذوا ينامون تحت سريره، ويدخلون معه في بيت الراحة لحراسته وقت قضاء حاجته، ويكبتون أنفاسه وهم حوله أثناء قيامه بأعماله المكتبية.

كان يعلم أنّ الذين يلاحقونه ليل نهار لقتله هم قادة فصيل «مجد العرب»: أحمد ياسين الحمد وسعيد بيت إيبا وعبد الحميد المرداوي، وكان كلّ همّه ملاحقتهم وقتلهم وإخراجهم من دائرة تفكيره.

بقي الأمر على هذه الحال حتى شهر آذار 1939 عندما استشهد القائد العام أبو كمال في صانور، وقد اشتركت في عملية قتله مجموعة صغيرة من القوات البريطانية المحتلة.

التفت إياد قائلًا:

- كان جدّي يبكي عندما يحدثنا عن استشهاد رفيقه قائد عام الثورة، ويشعر بالحزن عندما يتذكر تأثير استشهاده على المسار النضالي للفصائل الثورية.

خيَّم الصمت على الجميع، وفي لحظة أخذ إياد طرف الحديث من جديد، وقال:

- طغى دم الثوار في عروق القادة الثلاثة، واتفقوا على أنه لم يبقَ من قوس الصبر منزع، وعليهم التوجه إلى قرية العطارة قرب جنين، لنصرة الثوار فيها؛ الذين هم في صراع دائم مع قوات الاحتلال البريطاني.

تقابلت عيونهم عند وصولها، وضغطوا على زر تنفيذ عملية خططوا لها من قبل، قتلوا فيها مجموعة من الضباط والجنود الإنجليز، لكنْ للأسف سقط فيها القائد عبد الحميد المرداوي ويده على زناده، وهو يهتف قبل أن تخفت أنفاسه: «أموت من أجلك بكبرياء يا وطني».

ثم حاول أن يستجمع أنفاسه، وسرعان ما أطلق زفرته الأخيرة، وصعدت روحه إلى السماء.

تحجرت في عينيّ الدموع عندما سمعت هذه العبارة، وشعرت أنّ الحياة لا تعني شيئًا بغير وطن.

(17)

ازدادت دقات قلوب الجالسين لاستشهاد القائد عبد الحميد المرداوي، فجأة وقف أحدهم وتساءل بصوت عالٍ موجهًا سؤاله لي:

- من هو القائد الإنجليزي مستر فوت الذي ذكرته في حديثك؟

طاف بعينيه في كل الجهات وهو ينتظر إجابتي، ثم أسرعت مبينًا أنه ضابط كبير اسمه Hugh Foot، كان يتقن اللغة العربية، وقد غادر فلسطين إلى لندن بعد أن ساعد الصهاينة على إقامة دولتهم، وبعدها أصبح عضوًا في مجلس اللوردات، وتغير اسمه بحسب العادة المتبعة في بريطانيا، وأصبح يعرف باسم اللورد كاردون، وهو الذي صاغ قرار 242 بكلّ مطباته وتناقضاته، عندما كان مندوب بريطانيا الدائم في الأمم المتحدة في عام 1967.

ألقيت نظرة على كلّ الحاضرين، وبينت لهم أنني لست بصدد الحديث عن سيرته كمتآمر ضدّ مصالح فلسطين والعرب، بل أريد التحدث عن لقاء لي تمَّ معه بالصدفة المحضة، في قاعة كبار الزوار في مطار القاهرة، في يوم من سبعينيات القرن الماضي.

كنت بانتظار إقلاع الطائرة المصرية المتوجهة إلى الكويت، مقرّ منظمة «الأوابك» التي عملتُ فيها حينذاك، وهو كان بانتظار إقلاع

الطائرة الأردنية المتجهة إلى عمّان. التقيت به وبرفقته سيدة تتقن اللغة العربية

كان سهلًا عليّ التعرف عليه، وأمضيت نحو ربع ساعة بالتحدث معه حول فترة حكمه العسكري للواء نابلس، وسألته عن أصعب الأوقات التي عاشها في تلك الفترة، وعلمت منه أنه عانى الأمرَّين من قادة فصيل «مجد العرب». بلع ريقه بصعوبة عندما كرر أسماءهم، وبينت له بافتخار أنّ القائد الكبير أحمد ياسين الحمد ابن قريتي بُرقة، ويشرّفني أن أكون أحد أتباعه.

ارتسمت علامات الغضب على وجهه، وتركته دون أن أودعه، وصعدتُ إلى الطائرة ونسيت وجهه الكريه بعد دقائق معدودة.

علق إياد فرحًا:

- لم ينس نضال جدي ورفاقه ضده.

فأجبته:

- نضال جدك القائد الكبير لا يُنسى، لقد سُجِّل بأحرف من نور في سجل النضال الفلسطيني.

خيَّم الصمت بعض الوقت في تلك اللحظة، ثم انبرى إياد يسألني من جديد:

- هل لديك حكاية أخرى لها علاقة بجدي، استقيتها من لقاء تمَّ بالصدفة، في أيامك الماضية.

رحبتُ بسؤاله، وبيَّنت للجميع أنني زرتُ بودابست في أيام شبابي. وفي أصيل يوم من أيّام الصيف الجميلة، جلست في مقهى يقع على حافة نهر الدانوب في وسط المدينة، ورأيت على مقربة مني عجوزًا يحتسي القهوة ويقرأ جريدة الشرق الأوسط اللندنية، وكان يبدو على الشخص من سحنته أنه أوروبي، مثقلة أكتافه بأكوام ضخمة من السنين.

قاطع خلوتي قائلًا:

- اهتمامك بالنظر في الجريدة العربية التي أتصفحها، يدل على أنك عربي.

رفعت رأسي وأكدتُ له أنني عربي من فلسطين. وفي الحال ألقى الجريدة على مقعد قربه، وبيّن لي أنه كان الضابط المسؤول في مركز ترسلة الشهير، وأكد لي أن ثلاثة من قادة فصيل من فصائل الثورة قد حاولوا اغتياله عشرات المرات، وفي هذه اللحظة سألته:

- هل تذكر اسم أحد منهم؟

فرد بحشرجة واضحة في صوته:

- أذكر منهم اسم القائد أحمد ياسين الحمد.

تنفستُ الصعداء، وقلتُ له:

- إنّه برقاوي من قريتي بُرقة القريبة من مركز ترسلة.

أخذ منه الخوف مأخذه للقائي به غير المتوقع، وفي الحال حمل جريدته وخرج من المقهى، ولحق به النادل ليدفع ما عليه دفعه ثمنًا لفنجان القهوة الذي شربه.

ضحك الجميع بأعلى صوتهم، وقال أحدهم:

- نحمد الله على أن قائدنا العظيم يُرهبُ الأعداء وهو في قبره، بعد عقود من توقف الثورة الكبرى.

وأخيرًا قال إياد:

- هذا شرف لنا ولكل أهل بُرقة.

***

بعدها تابَعت أفكاري سيرها بالرجوع إلى معركة العطارة التي استشهد فيها القائد عبد الحميد المرداوي، ثم نطقت بعد جهد بالغ، بسؤال وجَّهته إلى إياد:

- ماذا حصل بعد ذلك؟

فأجاب:

- تولى أبناء الثورة تنظيم جنازة تليق بالقائد الكبير، واتجه جدي ورفيق مسيرته سعيد بيت إيبا وبعض المجاهدين إلى بُرقة وبيت إمرين وياصيد، وخاضوا معارك صغيرة تمكنوا فيها من قتل عشرة ضباط من كبار الضباط في لواء نابلس.

أغمض عينيه واستطرد قائلًا بصوت حزين:

- أصيب جدي بجروح بليغة، ولأنّ غريزة القتال كانت مستحوذة عليه، رفض العلاج في خارج الوطن، لكنه خضع لطلب رفاقه لأنه محكوم عليه بالإعدام من قِبل الإنجليز، ويصعب إدخاله في أي مستشفى في فلسطين.

وافق على العلاج في دمشق، وفي الحال وضعه رفاقه على ظهر حصان واتجهوا به إلى بيسان، ثم دخلوا الأراضي الأردنية ومنها اتجهوا به إلى درعا، وبعد فترة انتظار قصيرة من الزمن اتجهوا بقطار سكة حديد الحجاز إلى دمشق، وأزاحوا عن صدورهم ثقلًا كبيرًا عندما أوصلوه بعينيه المشعتين إلى مكان العلاج.

قال القائد الكبير لرفاقه بصوت غير واضح النبرات: «هل نحن في دمشق الآن؟». بدا من شدة الألم كأنه خارج المكان، ثم قال لرفاقه ثانية: «أنا لست من الذين يموتون في فراشهم، أنا عاهدت الله على أن أموت شهيدًا في ساحة القتال، وإصبعي على الزناد».

(18)

أدخله رفاقه الثوار المستشفى الإيطالي، أحد أهم المستشفيات في دمشق في ثلاثينيات القرن الماضي. بقي فيه مدة شهرين كاملين حتى شفي من كلّ جروحه، وعادت صحته كما كانت من قبل. وكان يحسّ بالهدوء والسكينة عندما يزوره في المستشفى كل يومٍ صديقه السوري أبو صياح أحد «قبضايات» حي الميدان الشهير، يجلس على طرف سريره رافعًا رأسه إلى أعلى وهو يحدثه عن كلّ مستجدات دمشق بصوته الأجش ولهجة سكان حي الميدان التي تختلف عن لهجة بقية أحياء دمشق.

كان يلطّف من أجواء المستشفى زيارة عدد من رفاقه المجاهدين الذين استقروا مؤقتًا في دمشق، لأنّ الإنجليز حكموا عليهم مثله بالإعدام شنقًا حتى الموت، وكان في مقدمتهم ابن خال أمي، صديقه عبد المجيد عوض الساعد الأيمن للقائد الكبير أبي خالد السيلاوي، وقد تعودوا على تزويده بأخبار محزنة عن ضعف الثورة في أيامها الأخيرة، قبل وقت قصير من توقف ثوارها عن مواصلة القتال.

كان القائد الكبير يسمعهم وهو قاطب حاجبيه، يحدق بهم ويقول بتعابير الحيرة والألم:

- يا ليتني متّ مع من استشهد من الثوار في ساحة القتال، حتى لا أسمع هذا الكلام الذي يزيد من سرعة ضربات قلبي.

تلاحقت الأيام وخرج القائد الكبير من المستشفى، وأثناء خروجه سمع ذبذبات صوت ضحك رفاقه في أذنيه لفرحهم بشفائه، ثمَّ تعوَّد بعد خروجه من المستشفى على الجلوس معهم في مصايف دمشق، تحت أغصان أشجار منتصبة على مقربة منهم، وخاصة أشجار بلدة قدسيا التي كانت تستهوي أبناء بلده، وتعوَّدوا الإقامة فيها، وهي تقع على مرمى حجر من دمشق.

كان يمشي بين الأشجار القريبة من مكان إقامته، ويلاحقه رذاذ المطر في أيام الشتاء، في وقت يكون فيه الجو باردًا يغلفه الضباب، يمشي في طرق ضيقة ويقفز بين أخاديد مليئة بماء المطر، وسرعان ما يقف تحت شجرة عالية تقيه أغصانها المطر، ويندمج في تفكيره حول مسار أيامه الآتية.

كان يقف هادئًا بلا حراك، وكانت الفكرة الأساسية التي تدور في رأسه هي كيف يجد عملًا يعتاش منه في ظلّ ظروف حياة هادئة. وبينما هو على هذه الحال قرر بعد فترة من الوقت أن يتجه للعيش في العراق. بلَّغ قراره إلى عدد كبير من رفاقه، وقرر مرافقته نحو مائة شخص من مجاهدي الثورة.

***

ذات يوم ركب مع رفاقه المطايا، وتقابلت عيونهم مع الطريق الممتدة ما بين دمشق وبغداد. وبعد فترة من الوقت، نظر إلى رمال الصحراء نظرة

متثاقلة، وسأل في داخله بصوت حزين: «أين بُرقة ودحنونها ومياه عيونها؟»، تلك التي لن تتلاشى من ذهنه مهما طالت أيام الاغتراب.

وضع يده على جبينه، وشغل ذهنه ما ترك خلفه في قريته، وتمنّى لو أن الله استودعه كما استودع آلاف الشهداء الذين في مقدمتهم عبد الرحيم الحاج محمد سيف (أبو كمال)، وعبد الحميد المرداوي، وابن قريته حمد أبو ذياب، وابنه أسعد. كان يعود بين الحين والحين إلى عقله الباطن، ويتمنى لو أنّه في عداد الشهداء ليبقى ملفعًا بتراب وطنه، تلامسه جذور شقائق النعمان.

وصلت القافلة إلى بغداد في نهار يوم ربيعي، واستعاد الجميع هدوءَهم، وفي الحال خطوا إلى الأمام نحو خان ضخم على مقربة من نهر دجلة، ناموا فيه لياليَ عدة، ثم استحثوا خطاهم في شوارع بغداد باحثين عن عمل بأجر يساعدهم على مواصلة الحياة في ديار الاغتراب. استمر بحثهم طيلة شهر كامل ولم يجدوا أي عملٍ يوفر لهم لقمة العيش.

طلب قائد المجموعة أحمد ياسين الحمد، من رفاقه اللقاء به في ساحة الخان الواسعة. حضروا كلّهم الاجتماع، جلسوا أمامه ومرت بعض لحظات من الصمت قبل أن يرفع عينيه إلى عيونهم، تناقش معهم حول صعوبة الحصول على عملٍ مجزٍ في بغداد. وبينما هم يتناقشون، ما لبثت أن اختمرت فكرة في دماغه، مفادها الرحيل إلى المملكة العربية السعودية، وذكَّرهم باللقاء الذي جمعه بالأمير سعود ولي عهد والده

الملك عبد العزيز، وأنه وجه له دعوة مفتوحة لزيارة المملكة في أي وقت يريد.

بعد اجتماعهم بفترة قصيرة من الوقت، اتجه القائد مع اثنين من رفاقه إلى سفارة المملكة العربية السعودية في بغداد، وعرَّفوا السفير بأنفسهم، وبيّنوا رغبتهم في السفر والإقامة بالمملكة. وقد قام السفير بإبلاغ الملك عبد العزيز وولي عهده الأمير سعود، وبعد فترة قصيرة رحَّبت الجهات المسؤولة بدخولهم المملكة بتوجيه ملكي، واستُقبلوا استقبالًا رسميًّا عند وصولهم في عام 1939/ 1940، فقد استقبلهم الأمير أحمد السديري أمير الحدود الشمالية.

رُحِّب بالقائد أحمد ياسين الحمد بشكل خاص، وتشرف بمقابلة الملك عبد العزيز، وولي عهده الأمير سعود، وبيّن لهما أنه يتقن عمل فلاحة الأرض، بما في ذلك زراعة المحاصيل الزراعية على اختلاف أنواعها. وفي الحال عُيِّن بتوجيه ملكي مديرًا لمزارع الملك عبد العزيز في الرياض، وقام بعمله خير قيام. زرع النخيل والليمون والحمضيات بأنواعها، وزرع البطاطا وأنواعا كثيرة من الخضروات. وبعد فترة من الوقت انتقل إلى الخرج، وأدار مزرعة ولي العهد الأمير سعود، واهتم بإحساس متدفق بأن يزرع فيها أشتال أشجار من بُرقة كانت تأتيه مع القادمين من بلده بين الحين والحين. وقد نجح بزراعتها لأنّ أرض

الخرج رملية صالحة للزراعة، وغنية بالمياه، وقال عنها قديمًا ياقوت الحموي إنها أرض زرع ونخل وخير.

وبنشاط الشباب تحرك الفلاحُ البرقاوي الأصيل بسرعة هائلة، وطوَّرَ مزرعة ولي العهد. وتتابعت نجاحاته في زراعة القمح والذرة وبعض الأشجار والخضار التي لم تزرع من قبل، خاصة البطاطا التي لم تكن معروفة قبل أن يزرعها. ولنجاحاته المتكررة ذاع صيته بين الأمراء، وزاد من شهرته حسن طبائعه، وإخلاصه في العمل.

وقد تباهى الجميع بنتائجه الزراعية الباهرة، وعلت وجهه تعابير النجاح في أجلى صورها، وتابع إدارة مزرعة ولي العهد فترة من الزمن، ثم تحول إلى إدارة مزرعة طلال بن سعود في الخرج، وجعل مزرعته خضراء متلألئة.

ثمَّ امتدَّ عمله لإدارة مزرعة الأمير بندر بن عبد العزيز في البضعة، بعد أن أُسندت له عملية تطويرها. وقد زرع فيها النخيل في أرض مساحتها واسعة. وكان يذرع أرضها جيئةً وذهابًا في كلّ يوم، طالبًا من العمال القيام بما يراه لازمًا للتطوير. كان صاحب عزم شديد، يحسّ بكل شيء حوله يدور في المزرعة بحسب ما يريد في ظل علامات بارزة توحي بأقصى درجات النجاح. ومن مظاهر نجاحه أنّ النخلة الواحدة من النخل الذي زرعه، كانت تنتج 16-18 غدقًا (قطفًا) كبيرًا، وهو أعلى من متوسط إنتاج نخيل المزارع الأخرى.

استمرّ في إدارة المزارع لفترة طويلة من الوقت، فخيمت عليها ظلال أشجار يانعة. كان يتكئ عليها بكلتا يديه، ويروي للعاملين معه عن الأشجار في قريته الأثيرة على قلبه.

يفتح عينيه تحت وطأة الشوق لها، ويقول: «لن أنساها. كم أنا مشغوف بها! ستبقي عيوني مكحلة بها حتى آخر لحظة في حياتي».

(19)

بينما كان إياد يحدثني عن المزارع التي أدارها جده في المملكة، قلتُ له:

- يقفز إلى مخيلتي الآن فكرة أنّ جدك أسهم مساهمة كبيرة في تطوير الزراعة في منطقة الخرج.

حاول إياد أن يحررني من هذا التعميم، فبادرني قائلًا:

- أسهم في التطوير مئات الخبراء، وعشرات المشاريع الحكومية الضخمة التي تمّت رعايتها بشكل خاص من أعلى الجهات الرسمية.

وبدون أن ألتفت إلى الجالسين، تساءلت:

- ما هي مكانة منطقة الخرج الزراعية في الزمن الحالي، بعد ما يزيد على ثمانين عاما من وصول جدكم للمملكة؟

شد إياد على يده فوق الطاولة الصغيرة القريبة منه، وارتشف قطرات من الشاي الساخن الممزوج بالميرمية، واندفع قائلًا:

- تعتبر الآن سلة الغذاء للعاصمة الرياض، إذ تستحوذ على أكبر المزارع ومصانع إنتاج الألبان على مستوى المملكة ودول مجلس التعاون الخليجي.

حين سمعت هذه المعلومة المهمة ابتسمت ابتسامة واسعة، واستجبت لنداء داخلي، وسرعان ما تساءلت على ضوء ذلك النداء:

- هل امتلك جدكم مزرعة خاصة به، بعد تلك السنوات الطويلة في إدارة مزارع مهمة في الخرج؟
- لم يمتلك شجرة واحدة خاصة به في المملكة، لأنه كان زاهدًا في الدنيا، حتى إنّ الملك سعودًا طلب من الجهات المختصة في المملكة أن تُخصِّص له أرضًا، فشكره واعتذر عن قبولها.

وفي غمرة هذه الكلمات المتأججة بالعبر، قال على مسمع الجميع:

- هذا هو الثائر الوطني الحقيقي، كان يهمه أن يموت فداءً للوطن، ولم يشعر لحظة في حياته بأهمية ملذات الحياة الدنيا، كان يعمل دومًا لآخرته ومحبة الناس له. عندما كبر جدي واشتد عليه داء السكري، قرر الأطباء بتر رجله اليسرى، عاده حينذاك أحبته وأصدقاؤُه من الأمراء وكبار رجال الدولة والشيوخ، وفي مقدمتهم شيخه مفتي عام المملكة الفقيه الشيخ عبد العزيز بن باز، كان يفرح لرؤيتهم، ويقول لي ولإخوتي إنهم عزوته في شيخوخته يخففون عنه ألم المرض، ويسرجون له المصابيح المضيئة في الليالي الحالكة.

رمقته بنظرة مجبولة بعلامة استفهام ظاهرة، وسألته:

- متى تمّ بتر قدمه؟

فأجابني:

- في السنوات الأخيرة من عمره المديد، وقد عاش ثمانية وتسعين عامًا.

ثم سألته:

- هل شعر بضيق عندما أخبره الأطباء بحتمية بتر رجله اليسرى، لإنقاذه من مضاعفات الغرغرينا.

فأجابني:

- تقبّل قرارهم بصدرٍ رحبٍ، ثم حكّ ركبة رجله اليسرى، وأحسّ باستسلام حالم، وثبَّتَ عينيه على ركبته، وازداد حكه لها.

ثم قال للطبيب الجراح: «هل يمكن قطع رجلي هذه من فوق الركبة، حتى أتخلص من ألم غضروفي فيها يزعجني منذ فترة طويلة». ودون أنْ يزيد كلمة واحدة على طلبه، وافق الطبيب على طلبه وكان له ما أراد.

أخذ يطوف في خياله أكثر فأكثر حول قريته بُرقة، وتدور حوله وجوه رفاق السلاح، وأقربائه من آل أبو عمر، ينسج لهم في خياله عروشًا من أغصان اللوز والرمان والزيتون. كان أقوى من الأمراض، ملمًّا بكل ما يجري حوله، وبقي على عاداته بالحديث الدائم عن أيام نضاله، وترديد كلّ ما يختزنه في ذاكرته عن معارك

شارك فيها من أجل بلده. كان يتحدّث بنبرة واضحة كأنه لا شيء تغير مع جريان سنيه الطويلة.

مرت الأيام ورعشة الحياة تزداد شدة في أحاديثه، وبقي الوضع على هذه الحال مدة سنة واحدة. أقرّ طبيبه ضرورة بتر رجله اليمنى من الساق، وبعدها استقر وضعه لفترة ست سنوات، كان فيها مُقعدًا فلم يشعر بالضجر، يرى الدنيا في عيون أصدقائه وأولاده وأحفاده، تتداعى قلوبهم حوله، وتبعده عن عجاج آلام الأمراض.

وكانت آخر زفراته في مساء يوم قبل العشاء بقليل. ارتجفت ابتسامة مؤثرة على شفتيه، والتقى بعينيه بكل الوجوه التي كانت حوله.

ساد الصمت فترة من الوقت، وقطع حبل الصمت شهيق البكاء بشعور من الهياج، عبَّرَ به الجميع عن مكنون حزنهم عند ساعة الفراق.

تذكُّرُ ذلك المشهد دفع إيادًا إلى القول:

- بكاه كل أفراد أسرتنا، وحتى حفيف أشجار الحديقة كان يشبه صوت النواح. بكاه أصدقاؤُه، وسرعان ما بكته بُرقة، قريته التي التصقت ذكراها بكل شاردة وواردة في حياته.

وفي صباح اليوم التالي نعته الصحف، وبينت للقراء شيئًا من تفاصيل حياته بوصفه قائدًا ثار من أجل بلده، ومن مسيرته التي انتزع فيها النجاح في مزارع الخرج التي زرع في ترابها النخيل وكلّ أنواع الأشجار المثمرة وجعلها تخفق بنبض الحياة.

وفي تلك اللحظة تساءل الجميع من أسرته الصغيرة، شقيقه محمد وشقيقه الشيخ محمود، وشقيقاته وزوجته وأولاده وبناته وأحفاده وحفيداته وأسباطه: «كيف يمكننا العيش من دونه، ابتسامته كانت لنا مشكاة ضوء تمدّنا بخيوط أملٍ في ظلمة الحياة».

ضموه مع كلّ أتباع حمولة آل الحمد في المملكة في عيونهم، وألقوا عليه نظرة أخيرة، اغرورقت عيونهم بالدموع، والحزن يملأ نفوسهم، لأنه كان لهم كالنبض في الشريان.

(20)

تلاحقت الأيام بأجواء دافئة في الرياض في فصل الشتاء، وأحسستُ بدلالات عميقة تَلفت النظر وترتبط جوهريًّا مع الكتابة، وتبين لي أنَّ الدفء يشدّ قبضة الكاتب على قلمه، فيدفع سطوره بقوة في مدارات كتابية كثيرة لا حدّ لها، وبهذا يمتع نفسه بمسرة الكتابة بإحساسات حقيقية.

وثمة أمثلة من واقع تجربتي الشخصية يمكنني إيرادها في هذا الشأن، تؤكد أنّ رغبتي بالكتابة تتضاءل مع سقوط الثلج في عمّان، وأنني أشعر غريزيًّا بنظرة جليدية لتتابع الأيام حولي.

تحت تأثير هذه الحقيقة المباشرة، أخذت أصوغ الأفكار التي سمعتُها من حفيد القائد الثائر أحمد ياسين الحمد، صياغة أدبية بأسلوب سردي، استوحيتُهُ من دفء الرياض، لإسماع القارئ نشيج اللوعة المستعرة في مشاعر كلّ من عرف القائد الكبير إبان حياته، في بُرقة والخرج والرياض، وفي كلّ قرى وادي الشعير.

كنت أخطُّ حروفي على لوحة كلمات الحاسوب، بصورة مكثفة وعبارات أمامي على امتداد خيط طويل تتشابك فيه سطوري. أنظر أمامي في الشرفة إياها، أغور فيها إلى أعماق مسار القائد الكبير، وأخلع عليه كل مقاييس الشجاعة التي لا يتسم بها أبناء بلده في الزمن الحالي، ممّن يسمّون أنفسهم «مناضلين»، وهم من النضال براء.

أقف في لحظة عن الكتابة، ولا أجد متعة في مدّ سطوري أمامي على أوراقي، لأنّني أخلط ما أكتبه بشرح زائد عن مُغُر قُرى وادي الشعير، تتتابع على شاشة مخيلتي بصور تتحرك بسرعة هائلة، وتختلط ببعضها بعضا، في مساحات واسعة تزيد من نبض قلبي.

أقف بعض الوقت عن الكتابة، وأعود ثانية للجلوس أمام حاسوبي، فألقي نظرة على بعض ما كتبته، وأعير انتباهي لجوانب مهمة أسعى فيها للتأكيد على عظمة القائد البرقاوي العظيم.

طفقت أتخيل كلّ جزئية، من تلك الجوانب المهمة من حياته النضالية، وأشعر الآن وأنا أكتب كلماتها بأنها تتقافز في مجالات كثيرة، في معين واسع يضم مُغُر الثوار، مع آخرين من زمننا الحالي وضعوا أنفسهم في موقف منفرد، يندمجون فيه في قصورهم مع عدوهم في خندق واحد.

أريد بمداد أحمر أنْ أظلل مضمون ما أكتبه عنهم، وأكشف عن فرحي لأنّ ثوار الثورة الكبرى ليسوا أحياءَ بيننا، حتى لا يتعرفوا على البواعث غير الوطنية المتحكمة في سلوك الذين يدَّعون النضال وهم منه براء.

***

ذات يومٍ بينما كنت منشغلًا بمقارنة الحياة النضالية ما بين زمنين، زمن القائد الكبير أحمد ياسين الحمد، وكابوس الواقع المرير، رنّ هاتفي الجوال رنّة طويلة، ولسعادتي كان على الطرف الآخر من الخط عصام البرادعي العباسي، ومن حسن حظي أنه أنبأني بخبر مهم؛ مفاده أنّ صهره الدكتور عبد العزيز محمود الحمد موجود في الرياض، وهو كما أشرت

من قبل ابن أستاذي الشيخ محمود ياسين الحمد، واجتاحتني غمرة فرح لسماعي هذا الخبر المهم، ودارت تأملات كثيرة في رأسي حول أستاذي، وغرقت في تفكير طويل حول تعلمي على يديه في سني أيامي الأولى، في مرحلة الدراسة الابتدائية.

انقطع الخط الهاتفي واتصل عصام بي ثانية، واعتذرت له عن عدم مواصلتي الحديث معه، لأنّ خبر وصول ابن أستاذي كان مفاجأة سارة لي أبعدتني عن واقعي المعيش بعض الشيء، وعندئذٍ سألني:

- هل بحثت عن نسل أستاذك من قبل؟

فأجبته:

- بحثت عنه كثيرًا لكي أهديه كتبي، لأنه اكتشف مبكرًا موهبتي في الكتابة، وطلب مني أن أدرس الأدب العربي.

بعدها تساءل عصام ثانية:

- هل تصف لي أستاذك؟

- كانت لحيتهُ مهندمة دومًا، ويرتدي رداءً بردنين فضفاضين، وتشع عيناه ببريق يُشعر محدثه بالطمأنينة والسكينة النفسية.

ثم استدركت مبينًا:

- كانت براعته بوصفه معلمًا لها بهرجة خاصة، تنبع من حسن ألفاظه، وتقديره للتلاميذ والدفاع عنهم في كلّ المناسبات، وينتظرهم بعد الإجازات الطويلة في شوق ولهفة.

اهتزّ صوتي تحت وطأة مشاعري تجاه أستاذي، ثم عاد عصام للحديث ثانية، قائلًا:

- صهري عبد العزيز جاء من الدمام خصيصًا لمشاركة ابنه المهندس أسامة باحتفاله ببناء بيته، وستشارك في الاحتفال مجموعة كبيرة من آل الحمد وأصهارهم وأصدقائهم.

أمعنت التفكير بما سمعته عن الاحتفال، وقلتُ:

- مثل هذه التجمعات الكبيرة تتناقض مع إجراءات الوقاية من كورونا.

فأجابني:

- لا خوف من كورونا لأنّ جميع المواطنين والمقيمين في المملكة قد أخذوا الطعوم اللازمة، وهبطت الإصابات عندنا إلى أدنى مستوى.

حاول أنْ يخفِّف من غلوائي في ظروف كورونا، وطلبت منه أن ألتقي ببعض أولاد أستاذي في جلسة ضيقة في الهواء الطلق.

فقال عصام:

- الاحتفال بالبيت الجديد مناسبة لا تتكرر، لكي تلتقي بكل نسل أستاذك، ولا خوف عليك من كورونا.

ضحكنا، ثم قال ثانية:

- أعطيت تلفون ابنك لصهري عبد العزيز وسيتصل به قريبًا لتقديم الدعوة لكما.

وقد صحّ قوله، فقد بدأ التواصل ما بين عبد العزيز وابني، وتم قبول الدعوة. وعلى الرغم من حذري من كورونا فقد خرقت محظوراتها وغرقت في غبطة فرح لقائي المتوقع بأبناء أستاذي وأحفاده.

مرت الأيام وجاء يوم الحفل، أشرفت فيه الشمس على الغروب، وأطل علينا المساء بنجومه البراقة. وفي الحال صعدت إلى سيارة ابني، وانطلق بها إلى المنطقة الشمالية من الرياض.

قَطع مجرى الحديث مع ابني نداء متسارع كنت أردده في أعماقي لحظةً تلو لحظة، ويوقع في قلبي غصة تلازمني لأنني لن أستطيع رؤية أستاذي، ثم أقول بصوت خافت: «يكفي أنني سأستشعره في وجوه أولاده وأحفاده وأسباطه». غرقت في تفكير عميق لحظات طويلة، وكوَّنت بالفطرة حتى قبل لقائي بهم صورة عنهم سارعت في نسجها من وجه أستاذي الذي لم أنسَه البتة، وظلّ يلاحقني كوشم على مرايا أيامي الماضية في حيفا وبُرقة، مجللة بأجمل الذكريات التي لا تُنسى، وغصتُ كعادتي في بحور التخيلات، ومتعتُ نفسي بما تنفثه ذكرياتي من صور غائرة عميقًا في شغاف قلبي. نبهني ابني بصوتٍ عالٍ لكي أستيقظ من بحور تخيلاتي، وما لبث أن فتح باب سيارته وهتف قائلًا: «لقد وصلنا إلى البيت الجديد، وعلينا أن نترجل من السيارة».

ترجلنا وتلاشت تخيلاتي، وأخذت أشدّ خطاي في الواقع المعيش.

(21)

وصلنا إلى العنوان المطلوب، وأقول الحق إنَّ اللقاء بنسل أستاذي الشيخ محمود ياسين الحمد، كان مدهشًا ولن أنساه ما تبقى من أيام عمري. تلاحقت أمام عينيَّ مشاهد كثيرة في غمرة عاطفة لا حدّ لها، وشعرت بإحساس جميل اجتاحني عندما استقبلني كبير أبنائه من الأحياء، الدكتور عبد العزيز، برحابة صدر، ورأيت وجه أستاذي والده يطفو في عينيه، وأغلقت في تلك اللحظة جروح الشوق إليه، لأن لقائي بنسله، أسمعني صدى صوته يعلو من عمق أعماق الماضي.

وجدتُ في تلك اللحظة القوة كي أضم أولاده وأحفاده كلهم، وأنتشي معهم في بحر واسع من الذكريات، بدايتهُ في بُرقة ونهايته في شمال الرياض، وأسرج معهم مصابيح الدعاء لأستاذي الشيخ الذي علمني أبجدية اللغة العربية.

تعالى صوت عبد العزيز وهو يُعرّفني على جميع المدعوّين، وسرعان ما بين أنّ علاقتي به تتركز حول كوني أحد تلاميذ والده، علاقة تُلفّعها ذكريات أيامٍ كان والده فيها أستاذًا في حيفا وبُرقة.

برقت عيناي وهو يقدّمني للمدعوين من الأهل والأصدقاء، ونظرت إليه نظرة تمور بالسعادة، لأنه ذَكَّرني بأيام طفولتي في وطني، وانبعث من

حولي رنين جرس عالٍ في تلك اللحظة يدعو التلاميذ للدخول إلى صفوفهم الابتدائية.

جلستُ في مقعدٍ مقابل لمقعد عبد العزيز، وعلى يميني جلس شقيقه الطبيب الاستشاري جمال، وبجانبه ابنه إياس؛ الطبيب الاستشاري أيضًا. وما هي إلا هنيهة حتى شعرتُ أنني أختبئ في ظلال سنين طويلة تحاصرني منذ أيام يفاعتي، مصابيحها أطفِئت منذ زمن بعيد في حيفا وبُرقة، وبقيت منها وجوه منقوشة في ذاكرتي من أهلي وأصدقائي وأساتذتي، تنساب بين الحين والحين أمامي، تقترب مني فجأة وأنسج عنها حكايا، أنثر غمورها في شعري ونثري، وأشعر بسعادة لا حدّ لها، لأنني أعيد تلك الوجوه من جديد في مجرى أيام شيخوختي.

نظرتُ إلى عبد العزيز الجالس أمامي، وماج في عينيّ وجه والده، وردّدت قائلًا:

- من الوجوه التي أتذكرها دومًا في حاضر أيامي، وجه أمي وأبي وجدتي عائشة وابنة خالتي جميلة، ووجه والدك أستاذي الذي اكتشفَ مبكرًا وميض موهبتي في الكتابة الشعرية والنثرية.

وفي إطلالة على طفولتي وأنا في الصف الثالث الابتدائي في حيفا تجلّت أفكار أستاذي عندما قال لي:

- أنت تعبّر أثناء حديثك في الصف عن أحاسيس وصور وأفكارٍ لا أسمعها من تلاميذ الصفوف العليا.

بقدر كبير من الذكريات التي تدور حول أستاذي الشيخ محمود، وجهت حديثي حول حيفا، فتحتُ عينيَّ وبيَّنتُ لعبد العزيز وجمال حقيقة مهمة، مؤداها أنّ والدهم درّسني في مدرسة اسمها مدرسة البرج التي أسستها الجمعية الإسلامية، بدعم سخيّ من التجار السوريين المقيمين في حيفا، الذين كان لهم حضورهم المميز في سوق الشوام. وكنت أتعجب في صغري من حُسن تنظيم سوقهم، ومن تقاطر المشترين فيه زرافات إثر زرافات على مدار الساعة.

ابتسم عبد العزيز عند سماعه كلامي، وتساءل:

- هل ما زلتَ تذكر تلك السوق حتى الآن؟

فأجبته:

- أذكره ودومًا أتحدث عنه كلما التقيتُ بأحدٍ من الذين عاشوا في حيفا قبل النزوح والشتات.

ثم استطردت قائلًا:

- وهذا ما حدث معي عندما التقيتُ في عمّان قريبك المرحوم يونس عبد السلام سلامة أبو عمر، الذي عاش فترة من عمره في بلدة بلد الشيخ القريبة من حيفا، وذكر جوانب مهمة من تلك الأيام، عبَّر فيها عن دفء مشاعره، وكوَّنت من حديثه صورة واضحة عن دراسته هو وشقيقه عزّ الدين في مدرستي مدرسة البرج، التي كانت في زمانها من بين المدارس المهمة في حيفا.

ابتسم إياس، ثم قال:

- إنّك تتحدث عن جدي لأمّي.

وهنا تساءل عمّه عبد العزيز في نبرة جادة:

- ماذا قال لك يونس؟

- ذكرتُ مجمل ما قاله لي، في الجزء الثاني من ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور». وتبين لي من حديثه أنه دَرس في مدرستي مدرسة البرج قبلي بأربع سنوات، لأنه أكبر مني سنًّا، ودرَّسه فيها أستاذ من بُرقة اسمه الشيخ محمد عبد الكريم الأسعد أبو عمر، وقد درّس مادتي الدين واللغة العربية، بعدها انتقل إلى مدرسة أخرى في حيفا، وبعد النكبة نزح إلى دمشق واستقر فيها.

اندفعتُ أقول له بعد هذه المعلومة المهمة إنّ والده الشيخ محموداً حلّ محلّ قريبه الأستاذ البرقاوي عبد الكريم، واشتهر بعد فترة قصيرة في المدرسة بطلَّتِهِ الفريدة وشدة إخلاصه في عمله، وكان له أسلوبه المميز في تعليم اللغة العربية للصفوف الابتدائية الأولى، باستخدام الرسوم التوضيحية على أوراق ملوّنة من الورق المقوى، لطبع الحروف والكلمات في أذهان التلاميذ.

وتَوسعت في حديثي موضحًا أنّه درَّس اللغة العربية في ذلك الوقت بالاعتماد على كتاب «راس روس» لأستاذ الأجيال خليل السكاكيني.

كان لا يكتفي بتعليم الحروف والكلمات فحسب، بل يغوص بشرح جوانب أخرى كثيرة من قطوف المعرفة العامة غير المذكورة في الكتب المدرسية.

نظر إليّ عبد العزيز وقد غمرته رغبة في سماع المزيد، وتساءل:

- هل من أمثلة؟
- في كتاب راس روس قصة لشخص اسمه نعمان، وجد بالصدفة حذوة حصان، وأخذ يحلم بأن يجد ثلاث حذوات أخرى وفرسًا حتى يصبح فارسًا يُشهد له ببراعته في فنّ الفروسية.

انحنى محدثي إلى الأمام بعض الشيء، وهو ينظر بعينّي ويسألني:

- ماذا كان يقول لكم والدي في سياق هذه القصة؟
- كان يحدثنا عن التخيل في صنع واقع آخر للإنسان يُركز فيه على الأشياء التي تنقصه، المحتمل تحقيقها والتي يصعب تحقيقها، كما كان يحدثنا بكلمات بسيطة عن دور التخيل في نظم الشعر ونسج كلّ الأعمال الإبداعية.

مرت بضع دقائق، ثم تساءل جمال:

- هل كان يفهم التلاميذ ما يقصده من أمثلته؟

فأجبته بكل بساطة:

- كان يكرر الأمثلة كثيرًا، ويسألنا حول مواضيعها، ونجيبه عليها ويصوّب لنا أخطاءَنا بصيغ مبسطة بأجمل الكلمات التي تمنح طلابه الثقة بالنفس والقدرة على التفكير.

(22)

وفي توضيح آخر، قلتُ لمحدثي إنني سألتُ أستاذي والده ذات يوم، وأنا في الصف الثالث الابتدائي، عن أهمية الخيال في نظم الشعر، ابتسم وقال لي:

- الخيال من عناصر الشعر المهمة، يتم به تشكيل الصور الشعرية والربط بين مكوناتها، وهي التي جعلت الأعمى أبا العلاء المعري يتخيَّل صور كلّ شيء حوله، ويجسدها في شعره، وعجز عن مجاراته في تخيله بعض الشعراء المبصرين.

ضحكتُ بصوت مسموع، وقلتُ:

- كلماتي التي قلتها تعبر عن مضمون ما قاله أستاذي، لأنه من الصعب أن أكرر الآن كلماته كما قالها بعد كل تلك السنين التي مرت، وجعلتني الآن منحني الظهر في سنّ الشيخوخة.

صمتنا برهة، ثم عاد عبد العزيز للحديث مؤكدًا أنّ ما قلتهُ عين الصواب، لأنه يصعب علينا إعادة قول الكلام الذي طمره الزمان، بانسيابه وقت قوله أول مرة.

أخذ بعض المدعوين بالدخول، وأطبق الصمت ثانية، ثم أخذنا نرتشف قطرات من القهوة العربية، وتلا ذلك سؤال مهم طرحه عبد العزيز مفاده:

- من تعرف من تلاميذ والدي الذين درّسهم في مدرسة البرج الحيفاوية؟

كنت على أهبة الاستعداد للإجابة، وفي الحال ذكرت له نفسي من تلاميذه في الصفين الثاني والثالث، لأنّ الصف الأول أكملته في مدرسة بُرقة الابتدائية، وعشت تلك السنة في كنف جدتي عائشة وابنة خالتي جميلة، بينما كان أهلي في حيفا. وذكرت أيضًا مجموعة من تلاميذه من بُرقة، منهم: طاهر حمدان صهر الشيخ يوسف البرقاوي، ومحمود عبد الهادي (الشاويش)، وقد ذكرتهما في الجزء الثاني من ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور». ومن أشهر تلاميذه، السياسي الفلسطيني الشهير خالد الحسن، وشقيقه الشاعر علي الحسن، وراشد الماضي صديقي الذي يعيش حتى الآن في بيته، في شارع حداد في حي وادي النسناس بحيفا، وقد تهيَّأت لي فرصة اللقاء به لأول مرة بعد ما يقرب من خمسة وستين عامًا من الفراق، وسط مشاعر مختلطة امتزجت فيها الدموع والذكريات.

واستنادًا إلى حديثي سألني جمال:

- بماذا تحدثتم عند اللقاء؟

- عند لقائي به راح يرسم ظلالًا وارفة جذابة لأيامنا في مدرسة البرج، واستمتعنا بما تزخر به ذاكرتنا من إشارات دلالية تلامس

ذكرى أستاذنا الشيخ محمود. استشعرنا حكايا كثيرة من أيامه معنا، ومرت صور الماضي أمام عيوننا، بكل حناياها ومداراتها.

تأثر عبد العزيز لكلامي، وتوالت الانفعالات أثناء جلستنا، ثم تساءل قائلًا:

- هل تلميذ والدي راشد الماضي ما زال في حيفا؟
- أجل ما زال يعيش معمَّرًا في حي وادي النسناس، وقد قابلته قبل انتشار وباء كورونا بفترة قصيرة، وأهديته بعض كتبي، وقلتُ له بنبرة عاطفية: كتبي دلالات بارزة على أفضال أستاذي الشيخ محمود على مساري الشخصي في عالم الكتابة.

(وأضفت مستدركًا): دومًا أؤكد لقرائي أنّ سرّ قدرتي على الكتابة يرجع إلى كوني تتلمذت على يدي الشيخ محمود، وأنّه اكتشف موهبتي في الكتابة عندما كنت في الصف الثالث الابتدائي في مدرسة البرج الحيفاوية.

تدخل عبد العزيز وتساءل بنبرة عاطفية:

- ماذا كان ردّ فعل صديقك راشد؟

ردّ صديقي متسائلًا في سياق حديثنا:

- هل تذكر المسطرة التي أهداها لك الشيخ محمود، عندما ضاعت مسطرتك ورفضت أن تتهم أحدًا من التلاميذ بسرقتها، لعدم وجود أدلة تثبت السرقة، وكافأك أستاذنا بإهدائك مسطرة منه.

تعمدت الضغط على كلمات إجابتي قائلًا:

- المسطرة ما زالت في حوزتي حتى الآن، أحتفظ بها بين مقتنياتي الحيفاوية المحفوظة في بيتي في عمّان.

نظرتُ إلى وجه عبد العزيز وأنا أحدثه عن المسطرة، وقد اكتسى وجهه بتعابير مؤثرة، في وقت كان به المدعوّون يدخلون قاعة الجلوس في بيت ابنه الجديد، الواحد منهم تلو الآخر، وأنا أشعر بالدوار في رأسي من كثرة حديثي وتشعبه في مجالات كثيرة، أجول فيها خلال صفحات منقوشة في ذاكرتي، أريد أن أفرج عنها وأقولها لابن أستاذي، وأتحسّسها بكلتا يديّ، وأجعل من حروفها شموعًا ذوائبها لا تُطفأ، ولا يتسبب فتيلها بخروج دخان أسود.

رشقني عبد العزيز بنظرة جانبية أحسست منها أنه لم يتوقع وجود المسطرة، سكتَ ولم يكن من شيء في تلك اللحظة يضاهي سكوته، لأنه تابع فيه شمّ رائحة حياة والده من أحد تلاميذه، واختلطت في داخله أصداء كثيرة متلاحقة ومتشابكة من سنوات بعيدة، كوَّنت حالة نفسية غير متوقعة سيطرت عليه.

(23)

على ضوء حديثي، تلاحقت أمام عينَيْ عبد العزيز مشاهدُ كثيرةٌ من حيفا وبُرقة، وقال متسائلًا:

- لماذا ما زلتَ تحتفظ بالمسطرة هدية والدي حتى الآن؟
- لأنه من أهم أساتذتي، وتغمرني السعادة بالتحدث عنه الآن وأنا في الهزيع الأخير من العمر.

عند ذلك امتدت سدور الخراف على امتداد قاعة الجلوس، وفي الحال وقف أمامنا أسامة صاحب البيت الجديد، ودعانا لتناول العشاء، وخصَّني عبد العزيز وجمال برعاية مميزة، واهتموا بنثر قطع اللحم الطري أمامي، ثم شجعوني على تناول قطعة من الكنافة النابلسية يتلألأ القطر عليها، وتظهر لي كأنها من صُنع محل بسيس في نابلس الذي كان يتردّد عليه دومًا أهل بُرقة.

وبعد الانتهاء من الأكل توجهنا من فورنا إلى مقاعدنا، وأخذنا بارتشاف القهوة العربية. وطلب مني عبد العزيز أن أستكمل ذكر أسماء تلاميذ والده من زملائي الذين أذكرهم حتى الآن. واعتراني فرح داخلي وأنا أذكرهم له وهم: محمد شبلاق، حامد حمدان، علي العباسي، أحمد الزرعيني، محمد الإدريسي، ماجد الأكرمي، عمر الطباع، وعبد القادر اللحام، وعبد اللطيف كنفاني. وكان بيت الأخير على مقربة من المدرسة،

رقمه 15 في شارع البرج، وقد زرته في بيروت عندما أصدر كتابه الموسوم «15 شارع البرج»، وسرعان ما نبهني إلى أنه اهتم في كتابه بأفراد أسرته وبيتهم وقطته «عنبرة» وحديقة بيتهم، ونقل مشاهد كثيرة من حيفا، منها مشهد مؤثر يتعلق بنزوح أسرته قبل سقوط حيفا إلى صيدا، كما ركز في كتابه على وصف البيوت المجاورة لبيته، والزاوية الشاذلية، ودرج عجلون الذي يفضي إلى وادي الصليب، وينتهي عند حمام الباشا.

توقف عبد اللطيف كنفاني فجأة عن الحديث، وسألته:

- ماذا عن مدرستنا وأساتذتنا؟

دُهشتُ عندما قال:

- لم أركز على مدرسة البرج في كتابي، واهتممتُ بذكر أستاذنا اللبناني معروف سعد.

التقطتُ كلماته بحزن بائن، وقلتُ:

- ماذا عن أستاذنا الشيخ محمود ياسين الحمد؟

وبشكل ما وجدته يدخل في سرد طويل عن أستاذنا، وعن مركزه المميز في مدرسة البرج، وغاص في ذكريات قديمة اختزنها في ذاكرته، عن أستاذنا وعن ابتكاراته التوضيحية في تسهيل تعلُّم اللغة العربية.

ثم حدثني عن بعض أصدقاء الشيخ محمود في حيفا، ومنهم زميله اللبناني معروف سعد، وقد عرَّفني على ابنته مُنى المقيمة في بيروت، وأهدتني كتابًا عن حياة والدها في فلسطين. وتبيَّن لي من تفاصيل الكتاب

أن معروفًا قد قاتل في صفوف الثورة الفلسطينية الكبرى، وكان صديقًا للقائد أحمد ياسين الحمد، واطَّلعت على صورة لهما مع القائد العام عبد الرحيم الحاج محمد سيف (أبو كمال) مثبتة بين دفتي الكتاب.

اهتم عبد العزيز بهذه الجزئية من حديثي، وعلق قائلًا:

- هذا يَعني أنّ السياسي اللبناني معروف سعد، الذي زامل والدي في مدرسة البرج، قد حارب قبل عمله في المدرسة أستاذًا في صفوف الثورة الكبرى، وكان رفيق سلاح لجدي أحمد.

توسع شرحي لعبد العزيز عن الدور النضالي الكبير الذي قام به معروف سعد في فلسطين، الذي كان يتلمس فيه مجد الشهادة، وبقي فيها في مسارات اختلطت أحداثها مع حرب 1948، ثم عاد إلى لبنان مع بداية النكبة، وأصبح من كبار السياسيين في بلده، وبقي مدافعًا عن القضية الفلسطينية حتى آخر لحظة من حياته.

لمس محدثي عبد العزيز في تلك اللحظة جبهته بأصابع يده اليمنى، وتمتم بصوتٍ منخفضٍ متسائلًا:

- هل حدَّثك عبد اللطيف كنفاني عن أصدقاء آخرين لوالدي في حيفا؟
- أجل، ذكر لي منهم والده حسن كنفاني، وعاطف نور الله المؤسس الفعلي للكشافة في فلسطين، وهو من أقرباء القسّام، وأخبرني أنّ أستاذنا الشيخ محموداً قد دخل بيتهم لتقديم واجب العزاء عندما

استشهد شقيقه خليل حسن كنفاني في عام 1947، كما تعوَّد على تقديم واجب العزاء لكل من استشهد في الشهور الأخيرة من عام 1948، خاصة الشهيد الأردني محمد حمد الحنيطي قائد حامية حيفا، والشهيد حامد البرقاوي، وغيرهما من الشهداء، الذين قدَّموا أرواحهم من أجل الوطن.

كنت أستمتع وأنا أقدم لعبد العزيز ملخصًا عن سيرة والده الاجتماعية في حيفا، استقيتها من أحاديث تلميذه الحيفاوي عبد اللطيف كنفاني. دُرت مع زميلي حيًّا تلو الآخر في حيفا، وهو يتحسّس صداقات أستاذنا في الأحياء المختلفة من المدينة.

مرت برهة دون أنْ ينبس عبد العزيز ببنت شفة، بعدها رمقني بنظرة جدية، وسأل:

- هل ثمة أصدقاء آخرون التقى بهم والدي في زحمة أيام حيفا؟
- بناء على ما سمعته من والدي الذي كان من أصدقاء والدك، فإن له أصدقاء كثرًا من مشاهير حيفا، في مقدمتهم مفتي حيفا الشيخ عبد الرحمن مراد، وزعيم حيفا رشيد الحاج إبراهيم، وسعيد الحسن، ومحمد البرادعي العباسي رئيس ومؤسس جمعية لجنة اليتيم العربي، وأحمد كريم آخر مدير لمدرسة البرج، ومحمد كامل القصاب أول مدير للمدرسة نفسها، كما كان صديقًا للشاعر

الكبير عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وردّد أستاذنا علينا قصائد عديدة له.

وفي الحال قرأتُ قصيدة من قصائده الشهيرة:

انشر على لهب القصيدِ شكوى العبيدِ إلى العبيدِ
شكوى يُرددها الزمانُ غدًا إلى الأبد الأبيدِ

ثم رددت قصيدتهُ الشهيرة أيضًا «سنعود غدًا».

توالت الانفعالات حول الشاعر الكبير، وقال جمال:

- لقَّبوه بزيتونة فلسطين.

وقلت في الحال:

- زيتونة رومية ذات قرمية ضخمة نادرة، من زيتون أراضي عين الرشراش في بُرقة، عليها بصمات مئات السنين.

ابتسم جمال ثم اقتربت من عبد العزيز، ولاحظت من تعابير وجهه أنه يظهر محتارًا بهذا الكم من المعلومات التي سمعها مني، نقلًا عن تلميذ حيفاوي من تلاميذ والده عبد اللطيف كنفاني، الذي ردّدها من الذاكرة على مسمعي في بيروت، ولم يسجّلها للأسف في كتابه «15 شارع البرج».

اقتربتُ من عبد العزيز، ونظرتُ إليه عن قرب، وتأكدت أنّ الحيرة تملأ نفسه، وفي الحال أسمعته أسماءَ أخرى من أصدقاء والده البرقاويين، منهم: والدي، وعبد السلام سلامة أبو عمر، وأحمد عبد القادر القمر، ومسعود علي مسعود (دغلس)، والشيخ فايز البدري صلاح، والتاجر

محمود الحامد قريب الشيخ يوسف البرقاوي، وغيرهم كثر. أسّس معهم جمعية اجتماعية لبُرقة في حيفا، كانوا يجتمعون في رحابها، ويقدمون الدعم اللازم لأهل بُرقة الذين يعيشون فيها وفي حيفا.

وبينتُ لعبد العزيز، في وقت كنّا نرتشف فيه القهوة العربية أنّ القاسم المشترك الذي جمع والده مع أصدقائه هو قضية وطنهم، وتقديم العون لأيتام الثورة الفلسطينية الكبرى.

سألني جمال في الحال:

- كيف يتجلى نشاط والدي في مجال تقديم العون للأيتام؟
- من خلال جمعية لجنة اليتيم العربية التي ذكرتها من قبل، فقد كان عضوًا من أنشط أعضائها، وكان صلة الوصل بين اللجنة وأبناء بلده بُرقة في حيفا. وكنت أسمع والدي وهو يقول لأصدقائه: «علينا تقديم ما علينا من مستحقات الأيتام إلى الشيخ محمود»، وكان إذا تأخروا عن الدفع يبادر بتذكيرهم قائلًا: «أيتام الثورة الكبرى ينتظرونكم». (وهنا تغيَّر صوتي وقلتُ): هذا هو أسلوب الرجال الذين تخفق قلوبهم بحبّ وتقدير أصدقائهم.

كانت تُبرق أنظارهم إلى الشيخ محمود وهو يحدثهم في شؤون دينهم ووطنهم وأمتهم، ويبين لهم بعض العيوب والنقائص في مجرى حياتهم، ويعطيهم أمثلة عن علاج مسائل كثيرة من أيام عصرهم.

(24)

بدت تلك الذكريات مفرحة لعبد العزيز، وسألني بصوت خافت:

- هل لديك المزيد من هذه الذكريات؟
- لديّ منها ذكريات مؤلمة بمشاهد حرب ورعب، نتيجة ارتفاع منسوب جرائم عصابات الهاغاناة الصهيونية ضدّ العرب، باستخدام أسلحة حديثة بما فيها الأسلحة الكيماوية التي لم تكن متوفرة عند أهل فلسطين.

ثم سأل جمال:

- كيف سقطت حيفا؟
- وضعت قيادة عصابات الهاغاناة الصهيونية خطة مُحكمة للسيطرة على حيفا، أطلقوا عليها مسبرايم (المقص). ومضمونها انقضاض فرق من الهاغاناة من منطقة الهادار باتجاه حي وادي النسناس وحيفا التحتة، بعد تصفية مقرّ المقاومين العرب في قصر آل الخوري وفي بيت النجادة في حي الحليصة.

طال حديثي لعبد العزيز وجمال عن تلك الأوقات الصعبة، واتسعتُ بشرحي لهما عن تفاصيلها منذ اللحظة التي ماجت فها حيفا في عجاج القتال، وبينت أنّ عصابات الهاغاناة سارعت بتنفيذ خطتهم، واتسع مدى نسف البنايات ورمي براميل المتفجرات من أعلى قمة الهدار إلى حيفا

التحتة. واقتربت هذه الأحداث من مدرسة البرج، وذات يوم من أيام شهر شباط 1948 تم تجميع الطلبة في ساحة المدرسة.

بعد ذلك تقدم الشيخ محمود الجميع وأخذ يردّد نشيد موطني، والكل من ورائه يرددون النشيد، ثم صرخ بصوتٍ عالٍ: «سيتم إغلاق المدرسة إغلاقًا مؤقتًا، وسنحتفظ بمفاتيحها لنفتحها بعد وقت قصير في يوم العودة».

صدى صوته أسمعه الآن يغور عميقًا في أعماقي، وأسمعه وهو يقول:

- احفظوا كل ما لديكم من كتب ودفاتر وأقلام في مكانها، لأننا سنعود قريبًا، وتعود عجلة مدرستنا للدوران من جديد.

ثم أكد في نهاية كلمته أننا سنعود إلى فصولنا، فصلًا ففصلًا، ونبلل وجوهنا برذاذ موج حيفا على شاطئ العزيزية.

ألقى عبد العزيز نظرة تُعبّر عن قرار قاله بصوت خافت مفاده: «لن تُمحى ذكرى والدي من مخيلتي على مدى الأيام».

ثم سأل:

- ماذا تمّ بعد ذلك؟

فأجبته في نسيج سردي متداخل عن آخر لحظات وجودنا في المدرسة، وبينت له حيثيات كلمة ألقاها مدير المدرسة أحمد كريم، ثم قلتُ بنفسية حزينة:

- أُغلقت مدرسة البرج، ثم عُدت إلى بيتي في الجهة الجنوبية من شارع الناصرة (بلعتُ ريقي ثم أضفت): عندما رأتني أمي ضاق صدرها ثم احتضنتني وهي تبكي على أحوال حيفا، وسمعتُ منها تنهدات وزفرات مشتعلة.

لاحقًا وصل والدي وبذل جهدهُ كي يُخرج من فمه كلمات واضحة ولم يتمكن من قول كلمة واحدة. وبعد برهة سمعنا صوته بصعوبة وهو يردد بضع كلمات بحنق وغضب، وأدركتُ أنا وأمي من كلماته أن حيفا تتعرض لأحداث متلاحقة يُطلَق فيها الرصاص بلا انقطاع. وقد استمرت أوضاع المدينة على هذه الحال حتى سقطت في 22 نيسان 1948، وبدأ سكان الأحياء العربية بالنزوح إلى الدول العربية المجاورة، واشتد النزوح من أحياء: وادي رشميا والحليصة ووادي الجمال، والجهة الغربية من حيفا القديمة، ومن حي وادي الصليب في حيفا التحتة.

أدار والدي رأسه بحدة وهو يصف لنا تكدس القوارب والشخاتير في الميناء، وأهل حيفا يصعدون على متنها، والأمواج تهزها صعودًا وهبوطًا، وهي متجهة إلى بيروت وإلى عكا ومنها إلى الحدود اللبنانية جنوبًا.

التفتت أمي إلى والدي، وسألته بحزن كبير:

- ماذا سنفعل؟
- كلّ سكان حيفا من مدن وقرى فلسطين الذين وفدوا إليها مثلنا اكتسابًا للرزق والعمل، سيرجعون إلى مدنهم وقراهم.

كانت والدتي تنتظر من والدي تكملة جوابه، وبانتباه تام سمعناه يقول، وقد اكتست ملامح وجهه بتعابير الحيرة والألم:

- غدًا صباحًا سنعود إلى قريتنا بُرقة.

توسد دمعة سالت من عينيه، وشدَّ قوس الكلمات من جديد، مبينًا أنه فارق بُرقة وعمره ثلاثة عشر عامًا ويعود لها جريح القلب وهو على مقربة من الخمسين من عمره. عمل في دائرة البريد والبرق والهاتف (البوسطة) في طبريا والعفولة وحيفا، واستمر عمله في حيفا وحدها ما يزيد على ثلاثة عقود.

وبيّن بحزن شديد أنّه يُطرَد الآن مع بقية العرب من حيفا، تحملهم الرياح إلى المجهول كما تحمل أوراق الخريف الصفراء.

كانت تحوم فوق أسرتنا مسحة من الحزن العميق والألم الشديد، جعلتني أفكر رغم صغر سني، في أغوار وأسرار الحروب، وخصائص الاستعمار الوحشية، التي تُفسد كلّ شيء في الحياة البشرية.

(25)

بينما كان عبد العزيز يسمعني بعناية فائقة، بينت له أن النكبة قد بدأت بالنسبة لأسرتي الصغيرة في صبيحة يومٍ من أيام نيسان 1948؛ يومٍ خيَّم فيه الظلام على كلّ حيفا بعد سقوطها. امتقع لون أبي، وشحب وجهه عندما أغلق باب بيتنا ووضع المفاتيح في جيبه، ووجدتُ نفسي أسير خلف والديّ، فقطعت معهما الممشى الذي يتوسط الساحة المقابلة لبيتنا. وبعد برهة وصلنا إلى ساحة واسعة فيها مئات الشاحنات التي تحرسها مجموعة من جنود القوات البريطانية، اعترتني دهشة عندما أخبرنا والدي بأننا سنشارك ثلاث عائلات برقاوية إحدى الشاحنات، منها عائلة صديقه وزميله في العمل عبد السلام سلامة أبو عمر.

علق عبد العزيز قائلًا:

- إنه قريبي، وقد علمتُ منك قبل قليل أن ابنه يونس قد درس في مدرسة البرج قبلك بسنوات؛ لأنه أكبر منك سنًّا.

صُورٌ كثيرة تحركت بسرعة هائلة أمام عينيّ، وأنا أحدِّثه عن لحظات تهجيرنا من حيفا، تشابكت على شاشة مخيلتي وامتزجت بأيام مضت عشتها في حيفا في أيام يفاعتي، بإشارات دلالية لامستُ فيها الذات والأهل في اللحظات الأولى للتهجير، عندما سمعنا على حين غرة أسماء

المُهجَّرين يتلوها ضابط إنجليزي من المشرفين على التهجير. وفي الحال اتجه الجميع إلى الشاحنات، وصعدتُ ببطء مع والديّ إلى متن شاحنة، ووجدنا أن صديق والدي عبد السلام سلامة أبو عمر وعائلته قد صعدوا قبلنا، ولاحظتُ أنّ أمّي دفنت وجهها بين راحتيها وانخرطت بالبكاء، وكذلك فعلت زوجة صديق والدي، وعندما تحركت الشاحنة تحول البكاء إلى نواح.

بينتُ لابن أستاذي بأن كل ما رأيت حول الشارع الذي يمتد أمامنا يخيم عليه صمت القبور، بما في ذلك المباني والأشجار والعصافير الصغيرة. كنت أحاول اختراق ستائر الصمت ولم أتمكن، أبحرتُ في تخيلاتي وأردت أن تُحوَّل رحلة الهجرة في اتجاه آخر، ويظهر ثوار الثورة الكبرى: القائد العام عبد الرحيم الحاج محمد سيف (أبو كمال)، والقائد أحمد ياسين الحمد، وعبد الحميد المرداوي، وسعيد بيت إيبا، وفرحان السعدي، وأحمد القط أبو عمر، وغيرهم من الثوار الآخرين الذين تنحني لهم الهامات. أردتهم أن يعودوا الواحد منهم تلو الآخر، ليزيلوا ظلمة الهزيمة ويرفعوا بقبضات أيديهم راية الثورة من جديد.

تعمقتُ في تخيلاتي على إيقاع هزات الشاحنة المتواصلة، وفي لحظة كنت فيها مغمض العينين، صحّاني والدي، وأخبرني بأننا على مقربة من الجهة الغربية من بُرقة. توقفت الشاحنة حينئذٍ وترجلنا ومشينا بضع

خطوات على الأرض، ثم ودعنا صديق والدي عبد السلام سلامة أبو عمر.

استرجعتُ في حديثي لعبد العزيز لحظات تتعلَّق بسيري مع أمي وأبي نحو بيتنا، باختراق ساحة مزدحمة باللاجئين، أغلبهم من عرب النفيعات من قضاء حيفا، ومن قرية طيرة حيفا، ومن قرية البروة من قضاء عكا.

وصلنا إلى بيتنا، وأخذ والدي يذرع قاعة الجلوس جيئة وذهابًا، وهو يردّد كلمات متقطعة شبه متصلة كأنه يهذي من شدة انفعاله، ويقول لأمي بحزن واضح: «خسرنا كل شيء لعدم وجود قيادة فلسطينية عليا على مستوى المسؤولية، قادرة على إمساك دفة الأمور كما يجب».

وبينما كان والدي يتحدث إلى نفسه بسبب صدمة النزوح، وصل أخي الأكبر سامي وأخي الأوسط محمود اللذان نزحا من حيفا قبلنا بأسبوع، ثم تبعهما وصولًا إلى بيتنا أقرب الناس إلى عائلتي في بُرقة: جدتي من أمي عائشة، وابنة خالتي جميلة، وخالتي فاطمة، وابن عمي جميل اليوسف، وشقيقه عبد الكريم، وزوجة عمي الحاجة سكر، وخالي علي أبو عودة سيف وابنه عمر.

كانت الدموع تسيل بغزارة على وجوههم، والتفتت جدَّتي إلى والدي، وانفجرت باكية وقالت:

- سقطت حيفا، وهبّت عاصفة الهزيمة على كلّ فلسطين.

فأجابها بصوت حزين:

- تمّ تمشيط كلّ الأحياء العربية في حيفا وطرد سكانها، تمّ طردهم من مدينتهم، واستحثوا خطاهم في منافي الشتات، وهم يحملون مفاتيح بيوتهم معهم، كما فعل سكان الأندلس عندما طُردوا من بيوتهم، وما زالوا يحملونها حتى الآن في مهاجرهم.

عند هذه النقطة قال عبد العزيز:

- أنتشي بحديث الجدّات.

بعد ذلك تابعت حديثي له عما سمعته في بيتنا، وأذكر حتى الآن ما قاله ابن عمي جميل: «مال ميزان القوى ميلًا خطيرًا لمصلحة الصهاينة في السنتين الأخيرتين، وخضنا المعركة الأخيرة بدون استعداد لها، وباستخدام أساليب مرتجلة لم تمكنّا من مجابهة العدو».

سيطر الصمت على الجميع، وفجأة نظرت جدتي عائشة نظرة حانية إلى أمي، وقالت لها:

- ستعود حيفا يا ابنتي، أحفاد القائد (أبو كمال)، والقائد أحمد ياسين، سوف يرفعون راية الثورة من جديد.

ردّد عبد العزيز ما قاله قبل قليل بدفق عاطفي؛ بأنه ينتشي بحديث الجدّات.

بعد قليل خرج الجميع من بيتنا وبقيت جدتي عائشة وابنة خالتي جميلة.

في تلك اللحظة، اقتربتُ من ابنة خالتي، وسألت:

- هل ستقدمين لي المساعدة التي أحتاجها في متابعة دروسي، كما ساعدتِني من قبل عندما درست الصفّ الأول الابتدائي في مدرسة بُرقة الابتدائية.
- طبعًا سأساعدك، خاصة أنك بعد انتهاء العطلة الصيفية، سوف تُرفَّع إلى الصف الرابع الابتدائي.

انفرجت أسارير جدتي على جواب حفيدتها، وقالت بصوت مسموع:

- جميلة أختك الكبيرة يا ستي، مين غيرها بهمه أمرك حتى يساعدك.

والحق أنه اتسع اهتمام ابنة خالتي بمتابعة تحضيري إلى الصف الجديد، كانت تبرقُ عيناها دوما عندما أطلب منها توضيح أمر ما له علاقة بالمدرسة. وكنت حريصًا دومًا على زيارة والدها والاستماع إلى أحاديثه الشيقة عن تاريخ بلاد الشام. كنتُ أسمع معلوماته بشوق زائد، وفي اليوم التالي كانت ابنة خالتي تأتي إلى بيتنا، وتسألني عن مضمون ما تحدَّث به والدها بالأمس، وتصرُّ دومًا على تكرار ما فهمته من كلامه، وتبعدني دومًا عن اللجوء إلى البصم والحفظ دون فهم لما أسمعه من كلام والدها في مجال تاريخ العرب والمسلمين.

ظهرت علائم الاهتمام على وجه عبد العزيز وأنا أحدثه عن مقاطع من أيام طفولتي الجديدة في بُرقة بعد النزوح من حيفا.

ودون تردّد أكملتُ له حديثي عن ابنة خالتي، مبينًا أنها أسهمت في تشجيعي على الدراسة كوالده الشيخ محمود في فترة تكويني خلال المرحلة الابتدائية.

أغمضُ عينيَّ بين الحين والحين، في زمني الحاضر، وأسمع مراتٍ ومراتٍ الكلمات نفسها التي سمعتها من أستاذي الشيخ محمود ومعلمتي ابنة خالتي في صغري، أسمعها ترنُّ في أذنيّ، وتشدني بألهبةٍ من الشوق إلى أيامي الماضية.

(26)

ضمن حديثي مع عبد العزيز قلتُ له:

- مع مضي الوقت وجدتُ مجاديفي من جديد في بُرقة، وتعرفت على قواعد حياتي الجديدة، ورضخت لها بمساعدة أبي وأمّي وجدتي وابنة خالتي جميلة.

وهنا وجدت عبد العزيز يسألني عن أهل جدتي ووالد ابنة خالتي:

فأجبته:

- أصل جدتي من سيلة الظهر، ابن شقيقها عبد المجيد عوض، ثائر من ثوار فصيل أبي خالد السيلاوي، حَكم عليه الإنجليز بالإعدام، وفرَّ إلى دمشق، وكان في استقبال جدك القائد أحمد ياسين، عندما وصل إلى دمشق للعلاج. ثم أضفت: والد ابنة خالتي جميلة، هو إبراهيم عبد الله الخليل، مِن أعرف أهل بُرقة بتاريخ بلاد الشام والفتوحات الإسلامية، وهي زوجة ابن عمكم محمد حسين أبو عمر، من وجهاء بُرقة، ولها منه سبعة أولادٍ من الذكور والإناث، وقد عرفني ابنها الأكبر عبد الحكيم على حفيدين من أحفاد جدكم القائد أحمد ياسين الحمد.

مع مرور الوقت، أخذ عدد من المدعوين بالخروج، وسرعان ما تابعت الحديث مع عبد العزيز وجمال، لأنني شعرتُ برغبتهما في معرفة المزيد عن أخبار والدهما في بُرقة بعد نزوحه من حيفا.

بينتُ لهما أنّ عجلة الأيام دارت في بُرقة. وذات يوم أخبرني والدي أنّ أستاذي الشيخ محموداً قد عُيِّن أستاذًا في مدرسة بُرقة، وتخيلته وهو يرعاني في مادة الإنشاء كما رعاني في مدرسة البرج في حيفا، وشعرتُ شخصيًّا بسعادة زائدة، لأنّ الحياة الدراسية معه ليست جامدة، بل قابلة للتطور والتغير مع الأيام. وقد قلتُ هذه الكلمات لوالدي بعفوية رغم صغر سني، وشعر والدي بالرضا لاهتمامي الزائد بأستاذي، وقال لي:

«إنّه من أقرب الناس إلى قلبي من برقاويي حيفا، أرفع رأسي به دومًا لما يقدمه من أفعال الخير ومساعدة أيتام الثورة الكبرى».

ثم أضاف في مجال تعداد محاسنه أنه كان له الفضل في تأسيس جمعية أهالي بُرقة في حيفا، التي أشارت لها المراجع الحيفاوية بأنها من أنجح الجمعيات التي أسستها جاليات القرى والمدن التي هاجرت إلى حيفا من أجل العمل. وكان والدي يلتقي به في مقرّها كثيرًا في شارع صلاح الدين بحي الحليصا، أثناء المناسبات الاجتماعية المختلفة.

وبينتُ لعبد العزيز أنّه بسبب معرفة أهل حيفا بوالده زارت الجمعيةَ مجموعة من الشخصيات الحيفاوية المعروفة، في مقدمتها: رشيد الحاج إبراهيم رئيس اللجنة القومية للدفاع عن حيفا في عام 1948، والصحفي

نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل، والمفتي عبد الرحمن مراد، ومطران العرب، ومحمد البرادعي العباسي، وفريد السعد، والدكتور أحمد كمال، وأحمد الإمام، وغيرهم.

اتسع اهتمام عبد العزيز بما قاله والدي عن الجمعية، وطلب مني إلقاء الضوء على كلّ ما قاله في هذا الشأن، فقلت بلمسات عاطفية متدفقة:

- استأنف والدي كلامه قائلًا: «كانت تقدم الجمعية بدافع وطني، مساعدات مادية ونقدية للمحتاجين والفقراء من أهل بُرقة، وتقيم الموائد الرمضانية. وكان نشاطها الوطني يزداد شيئًا فشيئًا، وتمكنت من شراء أسلحة للدفاع عن البيوت في الأحياء العربية، أثناء المعارك التي احتدمت قبل سقوط حيفا بفترة قصيرة».

ثم استدركتُ قائلًا:

- كان يتم كلّ هذا بفضل نشاط أستاذي والدك، الشيخ محمود شقيق القائد الكبير أحمد ياسين، وشهد له الجميع بأنه كان رجل خير وعلم.

افترَّ ثغر عبد العزيز عن ابتسامة، وقال:

- أجل وأتمنى أنْ يسير أولادنا وأحفادنا على خطاه ويتبعون نهجه في قادم الأيام.

تقابلت عيوننا، وخيَّم الصمت علينا، وكان من السهل سماع صوت سقوط الإبرة على الأرض.

تشعبتُ في حديثي بعدئذٍ، وطفتُ في فيض تفاصيل مدارات واسعة عن لقاء والدي ووالده في ساحة باب الجامع القديم في مركز بُرقة، إذ توالت لقاءاتهما، وتوسّعا في حديثهما عن جمعية بُرقة في حيفا، وجمعية لجنة اليتيم العربي، والنجادة والنقابات وغيرها من النشاطات المهمة الأخرى.

كان يشاركهما الحديث صديقهما عبد السلام سلامة أبو عمر وغيره من البرقاويين الذين عملوا وعاشوا في حيفا.

لحسن حظي أنني كنت محورًا لأحد اللقاءات حين تحدث أستاذي مع والدي عني.

سألني عبد العزيز في الحال:

- ماذا قال والدي عنك؟

وهنا وجدتني أقول له ما أخبره والدي لأمي، إذ قال لها مبتسمًا: «أخبرني الشيخ محمود أن ابننا الصغير لديه موهبة الكتابة».

كنت أشعرُ تجاه والدي بدفء بالغ، وأستجيب لكل ما يقوله لي، وشعرت في تلك اللحظة أنني سوف أصبح كاتبًا في كبري، أتخيّلُ عالمًا آخر غير عالمي المعيش على سطور أوراقي، وأنال درجة تقدير عالية، من أستاذي الشيخ محمود، يحسدني عليها أبناء جيلي في زحمة أيامي القادمة.

استرخى عبد العزيز في مقعده ثم خاطبني بحماسة ظاهرة قائلًا:

- أتحسَّسُ الآن أكثر فأكثر مدى تقديرك الزائد لوالدي، وأريد أنْ أحتفظ بكل كتبك في مكتبتي، لأنها ستذكرني بتلميذ والدي الذي رعاه في صغره.

ثم تساءل قائلًا:

- كيف تتذكر كلّ هذه التفاصيل المتعلقة بوالدي ودراستك في المرحلة الابتدائية بعد مرور عشرات السنين على حدوثها.
- أعتمد على قوة الذاكرة، وعلى ما كتبه والدي من ملاحظات موجزة على أوراقه ومفكراته التي ما زلت أحتفظ بها ضمن مقتنياتي التراثية حتى الآن.

أتصفحها بين الحين والحين، وألقي نظرة عليها حتى لا أنسى كلمة تركها لي والدي، وأنفعل انفعالًا شديدًا عندما أقرأ بعض ما فيها، ويُحلّق خيالي في أجواء عالية من المشاعر المتأججة، وألتقط تقاطيع وجه والدي، ويتسع في عينيّ وجه أستاذي الشيخ محمود، وبقية أصدقاء والدي، ومنهم صديقه رشيد الإدريسي الذي هُجّر من حيفا إلى مدينة فاس المغربية، وأتاه الأجل المحتوم في مدينة جدّه الأكبر، شيخ شيوخ أشراف الأدارسة، وقد ذكرتُ بحثي عن أسرته في روايتي «تطوان وحكايا أخرى».

(27)

وبينما كنت على وشك العودة للواقع من جديد لوصف مجرى أيامي المتلاحقة في بُرقة، أثناء العطلة الصيفية، سألني عبد العزيز:

- كيف قضيت أيامك في بُرقة، بعيدًا عن مجريات مدينة حيفا الصاخبة؟

بينتُ له، أنني تواصلت مع أصدقاء طفولتي الذين ذكرتهم، في الجزء الأول من ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور». وقد جمعني بهم من جديد الشارع الذي يتجه من السحيلة حتى العقبة قرب أرض صرطاصة. كنّا نسير على طرف الشارع ونتحدث بكلّ ما يتحدث به الأولاد في مقتبل العمر.

كثيرًا ما كنت ألتقي في ذلك الشارع مع أصدقائي المقربين، وفي مقدمتهم: يوسف محمد حسين أبو عمر، وعبد الحميد أبو عمر، وابن خالي عمر علي أبو عودة سيف، وعبد الله العيسى، وغالب عبد الهادي، وعدنان أبو خضير، وعبد اللطيف مسعود، وطارق داوود مسعود، وجهاد نظمي مسعود، ونعمان بزاري، ووليد وأكرم بزاري.

كنا نتحدّث بحكايا كثيرة عن القرية والمدرسة والأساتذة، بحسّ مرهف في لحظات الصفاء، وكنا نكثر من الحديث عن أبطال ثورة 1936، وكان نعمان يكثر من الحديث عنهم، وسرعان ما يروي نماذجَ

من بطولاتهم في ساحة الوغى. وبقي على هذه الحال في اهتماماته حتى أصبح شخصية سياسية مرموقة، وكان أمله قبل موته أن يُكحّل عينيه ببُرقة، وأن ألعب معه «الدقة والحاب» و«الغميمية» وغيرها من الألعاب التي كنا نلعبها في مقتبل أيامنا.

تابع عبد العزيز باهتمام زائد تفاصيل تواصلي مع أصدقائي، وتساءل:

- هل تحدثتم عن المدن الفلسطينية التي عشتم فيها قبل النكبة؟
- كلّ واحد منّا كان يتحدث عن المدينة التي عاش فيها، وقد تعرفت منهم على طبريا وبيسان وغزة وباب العامود في القدس، وعلى محطة سكة حديد اللد الرئيسية، وحي العجمي في يافا، وصناعة النسيج في المجدل، وكان عليّ أنْ أستسلم لطلبهم للحديث عن حيفا، ورذاذ أمواج بحرها، ونوارس كانت تلهو على مقربة من الشاطئ الأزرق، تحمل الريح أجنحتها في كلّ يوم إلى جزر قصية، تقع على أطراف البحر الأبيض. وأضفت قائلًا: ها أنّا الآن أكظم غيظ كلّ ما يغلي في صدري من غِلٍّ، لضياع حيفا وبحرها ونوارسها، ولعيش أهلها في خيام بالية أقيمت على عجلٍ في أطراف مدن عربية منحتهم حقّ الإقامة واللجوء.

وهنا وجدت عبد العزيز يطلب مني أن أستطرد بالحديث، فبيّنت له أنَّ أصدقائي في بُرقة قد لاحظوا أنّ للغة العربية الفصحى، دورًا رئيسيًّا مهمًّا في أحاديثي، وكانوا يعلّقون بأنني أحاول تقليد أستاذي الشيخ محمود

الذي أُكثر الحديث عنه، وهم لا يعرفونه لأنه لم يعلمهم في مدرسة بُرقة من قبل.

كانت أيامنا أنا وأصدقائي مزدحمة باللقاءات المتلاحقة، وذات يوم قائظ، قررنا السباحة في وادي الشامي، وفي الحال اتجهنا إلى وادي نوفل، وأعطانا مُزارع كمية من الجزر الأحمر الذي تشتهر زراعته في تلك المنطقة، ثم واصلنا المشي على الأقدام نحو وادي الشامي.

قاطعني عبد العزيز متسائلًا:

- هل عمق وادي الشامي يسمح بالسباحة في مياهه؟
- عمقه يسمح بالسباحة، ومياهه مصدرها مياه الأمطار التي تبقى متجمعة حتى أواسط فصل الصيف، وتعَوَّد شباب بُرقة على السباحة في جزء عميق في وسط الوادي، على مقربة من سهل بُرقة.

بينتُ لهُ أننا أخذنا معنا في ذلك اليوم القائظ ما يلزمنا للسباحة، وعندما وصلنا إلى الوادي وتربعت مياهه في عيوننا، وقبل أن نقفز فيها، انتصبت أفعى سوداء ضخمة في الوادي أمامنا، كانت واقفة في الماء على ذيلها، ورأسها تترنح يمنة ويسرة، وتظهر كأنها كانت تتفحص بنظراتها كل واحد منا، تفاجَأْنا بوجودها واشتد بنا الخوف. تطاير الشرر من عيوننا ثم هربنا وتركناها في الوادي خلفنا. ركضنا بسرعة البرق، وضربنا الأرض ضربات ثقيلة، وبقينا على هذه الحال حتى وصلنا إلى «راس الطبيب»، ثم اتجهنا

إلى عين الدلبة، وعندما وصلنا إليها توقفنا عن الركض، وأسندنا ظهورنا إلى أشجار الزيتون الرومي، وارتخت أعصابنا بعض الشيء.

سرعان ما تساءل عبد العزيز:

- ماذا فعلتم بعد ذلك؟

انفجرنا بضحك عصبيٍّ عالٍ، ولم نصدق ما رأينا بعيوننا، وأخذنا نتناقش حول وجود الأفاعي في الماء، ومرّ في تلك اللحظة مالك لقطعة أرضٍ قريبة من العين، يعمل شاويشًا في دائرة الشرطة في نابلس. وسأله أحد الأصدقاء بصوت متهدج: «هل تعيش الأفاعي في أعماق الوديان المغمورة بالماء؟».

ضحك باستهزاء وما لبث أنْ قال:

- لم أجد في ما قرأته من كتب ومجلات ما يبرهن على وجود هذه الظاهرة في عالمنا في أي مكان كان.

ارتبكنا لجوابه وقلنا بعد ابتعاده عنا، كيف يُكذبنا وقد رأينا بعيوننا قبل قليل أفعى ضخمة تلهو في مياه وادي الشامي، تعلو وتهبط بارتخاء في أعماقه.

كنت شديد القلق بسبب حادثة الأفعى، وطلب أصدقائي أن نحصر لقاءاتنا بالسير -أو الكسدرة- من السحيلة حتى العقبة قرب صرطاصة، واقترح نعمان بزاري أن نستخدم بيت عمه الشيخ موسى مدرسةً أثناء العطلة المدرسية، يعلمنا فيها ثلاثة من الطلبة الكبار.

ابتسم عبد العزيز وتساءل:

- هل داومتم في المدرسة؟

- ابنة خالتي جميلة اعترضت على التحاقي بهذه المدرسة، لأنَّ الطلبة الكبار الثلاثة الذين تعهدوا بتقديم الدروس لنا، هم من الطلبة الساقطين في صفوفهم.

ابتسم عبد العزيز، وخيَّم علينا الصمت بعض الوقت، ثم استطردت في تتبع تفاصيل برنامج يومي، حدَّدَته لي ابنة خالتي جميلة، وكانت تقدم لي فيه حصة دراسية طويلة في صباح كلّ يوم، في مجال القراءة والكتابة والتاريخ والجغرافيا والحساب، حتى لا أنسى المعلومات التي تعلمتها من قبل. كانت تجتاز بوابة بيتنا في كلّ صباح، وفور أن تدخل الغرفة الشمالية من بيتنا كانت تتساءل بصوت عالٍ:

- أين دفاترك وكتبك وأقلامك؟ ضَعها أمامك على مقعدك.

كنت أضع كل ما يلزمني على مقعدي الصغير الذي اشتراه لي والدي من حي الألمانية في حيفا، شعرت يوم شرائه أنّ الدنيا كلها ملك يدي.

وعلى إيقاع كلامي، قال لي عبد العزيز:

- لقد ابتسم لك الحظ في صغرك، وأنا سعيد من أجلك، لاهتمام ابنة خالتك بك خلال العطلة المدرسية الطويلة.

أجبته:

- تسري دومًا قشعريرة في بدني، عندما أتذكر تلك الأيام الجميلة، التي لم أعرف مثلها في كبري، أضم يدي وأضربها في الهواء ضربات متلاحقة، وأقول بصوت حزين متى أستنشق هواء حيفا وبُرقة من جديد؟

(28)

رغم أنّ بعض الضيوف قد عادوا إلى بيوتهم، إلا أنَّ أغلبهم استمروا في الجلوس. وكنت أرى عصامًا عن بعد وهو ينظر بطرف عينه، وأشعر بسعادته لأنني أعيش خلوة مع صهره عبد العزيز، نبحث فيها عن جذوره التي تمتد في أعماق تراب أرض بُرقة.

لاحظتُ في الوقت نفسه، استغراب بعض الضيوف لجلوسي مع عبد العزيز في ركنٍ منزوٍ من قاعة الجلوس في البيت الجديد أتحدث معه بألفة، ويُعبّر بعلائم كثيرة على وجهه بسعادته بما يسمع مني من أحاديث.

كان عبد العزيز ينظرُ إليّ طيلة الوقت بعينين حادتين، ويتابع ما أقوله له، وينتظر لحظة لقائي بوالده في مدرسة بُرقة، لأول مرة ما بعد النزوح من حيفا، والإقامة في بُرقة بلد الأهل والأجداد.

ران الصمت بعض الوقت، وبعد ذلك حدثته عن لقاء مع والدي في أصيل آخر يومٍ من أيام العطلة الصيفية. وبلغني حينذاك أنه في اليوم التالي ستبدأ السنة الدراسية، وقال لي على مهلٍ وهو يهزّ رأسه فرحًا:

- غدًا ستلتقي بأستاذك المفضل الشيخ محمود.

قلت لوالدي:

- أجل غدا سوف أراه وأنا على مقاعد الصف الرابع الابتدائي.

تساءلت في داخلي بعفوية طفولية، هل سيعرفني، ويقول لي أنت موهوب كما قال لي من قبل في مدرسة البرج الحيفاوية، وهل سيطلق عليَّ الأوصاف نفسها التي أطلقها عليَّ من قبل، وجعلني أثق بنفسي أكثر فأكثر، وتنثال عليَّ الكلمات في موضوع الإنشاء في غلائل قطوف يانعة.

ظلّ مشهد لقائي به المتوقع في مدرسة بُرقة لأول مرة، يتكرر في مخيلتي. كنت أنظر إلى صور ذلك المشهد، وظلال حزن تملأ وجهي، لأنني سوف أرى أستاذي لأول مرة بعد أن أصبحت لاجئًا، وتمّ تسجيل اسمي مع أسرتي في كرت مؤن اللاجئين، وأشعر بجرح الهزيمة المتقيح في شغاف قلبي.

ارتشفتُ القهوة نفسها التي ارتشفتُها مع عبد العزيز من قبل، ثم سألني كيف كان اللقاء مع والدي في الصف الرابع الابتدائي؟

فقلتُ:

- دارت غرفة الصفّ بي عندما أطلَّ علينا، غبتُ لحظة مشدود الأجفان في تذكر زملائي تلاميذ مدرس البرج في حيفا، ثم وقف أمامنا، ونظر لنا بنظرة حنان أبوي، وطلب منّا أنْ نُعرّفه على أسمائنا، وعندما انتهينا من ذلك طلب مني أن أقف بجانب السَبورة.

حدق بي عبد العزيز وسألني:

- لماذا أوقفك بجانب السَبورة؟

- طلب مني أستاذي أن أكتب بالطبشورة أبيات شعرٍ يعرفها كل أبناء فلسطين من الصغار والكبار؛ لأنها من أهم مضامين اللازمة الوطنية.

قاطعني عبد العزيز متسائلًا:

- ما هي تلك الأبيات التي طلب منك والدي أن تكتبها؟

ورددتها له في الحال:

سأحمل روحي على راحَتي وألقي بها في مهاوي الرَدى
فإمّا حياةٌ تَسُرُّ الصديقَ وإما مماتٌ يغيظُ العِدى
ونفسُ الشريفِ لها غايتانِ ورودُ المنايا ونيلُ المُنى

تساءل عبد العزيز:

- ماذا حصل بعد ذلك؟

- طلب مني أستاذي الجلوس.

وبعدئذٍ قرأ أبيات الشعر بصوته الجهوري، وطلب منا أن نحفظها عن ظهر قلب، وأن نرددها طيلة عمرنا. وبيَّن لنا أن ناظم هذه الأبيات هو الشاعر الكبير عبد الرحيم محمود من قرية عنبتا، وقد استُشهد في معركة الشجرة في شهر تموز الماضي أثناء العطلة السنوية من عام النكبة 1948.

وأضاف: «لقد دُفن الشاعر الكبير في مدينة الناصرة، لأنّ أهلها رفضوا أن تمرّ جنازته في طريقها إلى قريته عنبتا، وطلبوا أن يُدفَن في مقبرة مدينتهم».

تبادلت مع عبد العزيز النظر، ثم سألني:

- هل قبره ما زال في الناصرة؟

أومأت برأسي بالإيجاب، وسرعان ما قلت:

- يقع على مقربة من قبره قبرُ شاعر المقاومة الكبير توفيق زياد.

وبينما كان عبد العزيز يُلوّح بيده لضيف كان على وشك الدخول في قاعة الجلوس، أردف يقول:

- ماذا تمَّ بعد ذلك؟

- بيَّن لنا أستاذنا أن الحصة الأولى سيخصّصها للتعرف على التلاميذ، وسألني في الحال عن صديقي راشد القاضي الذي كان جاري على المقعد في مدرسة البرج، فأخبرته أنّ والده رفض النزوح وبقيت أسرتهُ في وادي النسناس في حيفا.

وأحسستُ برغبة ملحَّة بمعرفة رأيه بما فعل والد صديقي، سألته فقال لي وهو يفرك راحتيه:

- ما فعله هو الصواب بكل المقاييس، كان على الجميع عدم النزوح من مدنهم وقراهم.

ابتسم عبد العزيز لما قاله والده، وقال:

- هذا هو رأي والدي الذي جاهر به دومًا.

بعدئذٍ سأل أستاذي التلميذ الجالس بجانبي:

- هل أنت برقاوي؟

- أنا من عائلة درويش آل سيف من البروة، والدي؛ أبو عاطف، نزح إلى أقربائنا في بُرقة، وعمي؛ أبو أحمد، بقي في البلاد ولم ينزح.

قلتُ لعبد العزيز بابتسامة مشرقة:

- عائلة أبي أحمد درويش التي لم تنزح، هي عائلة الشاعر محمود درويش التي تنحدر من أصول آل سيف بُرقة، وقد كتبت عنها في الجزء الثاني من ثلاثيتي «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور».

تساءل عبد العزيز بنبرة عالية، بينما كان يفكر بما أقوله له:

- هل أصل الشاعر الشهير محمود درويش من قريتنا؟

فقلتُ له:

- أجل وهناك مشاهير كثر من الجنسين من بُرقة، في مختلف المجالات الأدبية والعلمية، منهم عدد كبير من البارزين على المستويين العربي والدولي.

وتساءل، هل من مثال عن الجنس الآخر؟

- يوجد منهن مدرّسات في جامعات أجنبية.

وتساءل:

- وماذا عن أولادك؟

نظرتُ إليه مبتسمًا وأجبتهُ:

- سأعرّف القراء عليهم عندما أكتب سيرة أيامي ومذكراتي.

(29)

لاحظتُ أن محدثي قد طغى عليه شعور بالراحة، لما جرى في الحصة الأولى لوالده في مدرسة بُرقة، ولاحظت أنه يريد سماع المزيد عن تلك الحصة. لهذا عاودت الحديث عما جرى فيها من أحاديث تستحق الذكر بعد أكثر من سبعين عامًا، ولخصت له الأمر بمداخلة مهمة لصديقي يوسف محمد حسين أبو عمر، روى فيها لأستاذنا عن الأفعى السوداء إيّاها التي ظهرت لنا في وادي الشامي، وسأل أستاذنا في نهاية مداخلته:

- هل تعيش الأفاعي في المياه المتجمعة في الوديان؟

بدا على عبد العزيز الانبهار لسماعه هذا الموضوع، وسألني:

- ماذا كان ردّ فعل والدي؟

وسرعان ما أجبته بأنّ أستاذنا أكد لنا في إجابته بأنه على درجة عالية من الثقافة العامة المتميزة، إذ بيَّن لنا في إطار معلومات متشعبة أن الأفاعي تعيش في البحار والأنهار والبحيرات والوديان، وفي مياه المجاري في داخل المدن، ومنها مئات الأنواع الضخمة التي تعيش في نهر الأمازون، وركز حديثه على أفعى الأناكوندا الصفراء التي أذكر اسمها حتى الآن.

تجلّت ابتسامة واسعة على وجه عبد العزيز، وتحدَّث بنبرة لا تخلو من الفخر بثقافة أبيه. ودون أنْ أسمع سؤالًا منه قلت له إنني سلمت

أستاذي أوراقًا عديدة كتبت عليها انطباعاتي عن حادثة الأفعى، وفي الحال قرأها وبادرني قائلًا:

- ما كتبته خارج نطاق مواضيع الإنشاء، إنها بذرة لمقال يستحق النشر في الصحف، ولأهميته سوف أقرؤه لتلاميذ الصفوف العليا.

استعر لهيب الفخر في نفسي لما سمعته منه، وقبل أن ينهي حديثه معي سألني:

- هل ساعدتك ابنة خالتك في ما كتبت؟

من فوري قلت لهُ:

- أجل ساعدتني، فقد غيَّرت العنوان الذي وضعته في البداية «أفعى في وادي الشامي»، فوضعت عنوانًا آخر «حنش في وادي الشامي»، وبررت ذلك بأنّ الأفعى السوداء في بُرقة تُسمى حنش.

عندئذٍ ابتسم أستاذي، وقال بنبرة عطف أبوي:

- لقد أصابت ابنة خالتك، لأنّ الأفعى السوداء يُطلق عليها اسم حنش.

توقف أستاذي عن الحديث، وقبل انتهاء الحصة الأولى بقليل، أوصانا أن نُقبِّل أيادي آبائنا وأمهاتنا عندما نغادر بيوتنا في الصباح إلى المدرسة، ونفعل الشيء نفسه عندما نعود من المدرسة.

التفتُ إليه بعد أن رفعت إصبعي وسألت:

- هل عليّ أن أُقبِّل يد أم أسعد؟

وفي الحال سألني:

- من هي أم أسعد؟

فأجبته:

- إنّها تقضي يوميًّا نهارها في بيتنا، وهي أم شهيد وزوجة شهيد.

قفزت إلى ذهنه صورة ابنها أسعد صديقه الذي أعدمه الإنجليز في بداية الثورة الكبرى. خيَّمَ الصمت بعض الوقت، ثم قال وقد بدت عليه أمارات الحزن:

- قبّل يدها قبل أن تُقبِّل يد والدك ويد أمك.

رنّ جرس المدرسة معلنًا نهاية أهم حصة مدرسية في حياتي، خرج أستاذي العتيد، ومن ثم بدأت حصة عادية لأستاذ آخر لا أذكر منها شيئًا في الوقت الحاضر.

***

اقتربت أصوات بعض الخارجين من قاعة الجلوس، وهبّ عبد العزيز واقفًا لوداعهم، ثم عاد إلى مكانه ثانية، وأرخى عينيه في الفضاء البعيد وهو يُقلّب صفحات أيام والده القديمة، وفي لحظة تقابلت عيوننا، فسألني عن علاقة والده بأساتذة مدرسة بُرقة، فأجبته من ملاحظاتي العامة بأنه كان يكثر المشي في ساحة المدرسة مع الأساتذة: عبد العزيز حميد سيف، وكامل صالح حمدان، وحسين الدسوقي، وابن عمه حمزة الدسوقي؛ أستاذ الأجيال الثلاثة، لأنه علَّم الآباء والأولاد والأحفاد، وكان يحضر في

الصباح إلى المدرسة برفقة أولاد عمومته الأساتذة: حسين أبو عمر، ومحمد سليم عبد الفتاح أبو عمر، وعدنان الحسن أبو عمر.

ولا أكون أمينًا للحقيقة إذا أغفلت أن أذكر أنه كان يُبدي اهتمامًا خاصًّا خارج المدرسة بأقاربه من آل فتح الله وأبو عيسى وأبو خضير، وكان يزور والدي في بيتنا في مناسبات الأعياد، ويزور أم أسعد ويضع في يدها ما تجود به نفسه الطيبة.

تطلع إليَّ عبد العزيز وسألني:

- كيف كانت علاقة والدي مع مدير مدرسة بُرقة؟
- كان المدير في تلك الفترة؛ خلال السنة الأولى بعد النكبة، الأستاذ عبد الوهاب الخطيب من بيت إيبا، وكان على علاقة ودية معه.

وبدون أن يرفع رأسه سأل:

- هل كانت المدرسة، تنظم لكم رحلات تزورون فيها بعض الأماكن القريبة من بُرقة؟

سكتُّ بُرهة، ثم تتبعتُ تفاصيل رحلات كثيرة قامت بها المدرسة، منها رحلة إلى نبع هارون قرب الناقورة، وتحدَّث خلالها مدير المدرسة عبد الوهاب الخطيب وأستاذي الشيخ محمود، عن معركة بُرقة بيت إمرين التي قاتل فيها فصيل «مجد العرب» واشتهر فيها القادة الكبار: أحمد ياسين الحمد، وسعيد بيت إيبا وعبد الحميد المرداوي. كما قامت

المدرسة برحلة إلى خرق (نفق) راشين، ودعا صاحب مزرعة من بلعا الأساتذة والتلاميذ لأكل الفقوس المنتشر فوق أرض مقثاته الضخمة.

ضحك عبد العزيز بصوت عالٍ، وعلق قائلًا:

- كم أشتاق إلى مقاثي بُرقةَ التي تعرفت عليها عندما كنت في الخامسة من عمري.

وقلتُ له:

- وأنا أيضًا.

وبعد كل تلك السنين أخذت أتخيل خيرات المقاثي من الفقوس والخيار والحروش، وغيرها من غلالها الأخرى. وطفقت أكرر على مسمع محدثي هذه المنتجات، وبينتُ له أن لها طعمًا آخر في أراضي بُرقة. صمت برهة، وافترَّت في تلك اللحظة ابتسامة على فمه، وتأكدتُ أنه راق له كلامي.

(30)

مضت بُرهة لم يحرك أحدنا فيها ساكنًا إلى أن طلب مني عبد العزيز أن أحدثه عن قصة لها علاقة بالأنشطة المدرسية التي اهتمَّ بها والده.

فقررت أن أحدثه عن تحلّي والده بحس تنظيمي مميز في مجال تقريب لغتنا العربية من التلاميذ، وأنه أسس في هذا المجال نشاطًا مميزًا حول السجال الشعري، وهو من ظواهر العرب التي كانت تقام لها المهرجانات، ويعتمد أساس هذا السجال على أن يبدأ شاعر أو أحد الحفظة ببيت من الشعر، ويقول نظيرهُ بيتًا يبدا بأخر حرف من بيت الشعر الأول، وهكذا دواليك. وقد وجد الشيخ محمود مجموعة من خمسة وعشرين تلميذًا من حفظة الشعر أتذكر منهم الآن: فوزي البزاري، وقريبي حريص الموسى من سبسطية. ومن الشعراء الذين يحفظون شعرهم وشعر غيرهم: الشاعر هارون رشيد من سبسطية، وابن خالي عمر علي أبو عودة سيف، الذي كان يُلقِّبُ نفسه باسم أبي العلاء المعري. وقد وافقت إذاعة القدس حينذاك على قبول أغانٍ عديدة من نظمه، وشجعه الشيخ محمود على نظمها لأن أغانيه ممزوجة بمنسوب عالٍ من الوطنية، وتراث الأغاني الشعبية.

وعلاوة على هذا النشاط، اهتمَّ الشيخ محمود بنشاط الخطابة، إذ يقف أحد التلاميذ بعد حفل السجال الشعري لإلقاء خطبة منه أو من

غيره. وقد اشتهر في مجال الخطابة في المدرسة عبد الغفار عوايص الذي كان طويل القامة، يتقن التلويح بيديه بما ينسجم مع ترديده للخطب التي يلقيها بصوته الجهوري المميز.

تأملني عبد العزيز، وقال متسائلًا:

- أين أنت؟

سيطر عليَّ الماضي، وتقافزت السنون من حولي في مشاهد طويلة، وجدت في مشهد نفسي، أقرأ قصيدة عن صحراء النقب، أُعجب بها أستاذي الشيخ محمود.

وتساءل ثانية:

- وماذا عن الخطابة؟
- لم أكن خطيبًا بأيّ حال من الأحوال، لكنني كتبتُ خطبة عن العلاقات الإنسانية ما بين البشر، بصرف النظر عن اختلاف لون بشرتهم ومنابتهم ومعتقداتهم، ومزجتها بكلمات من رواية كوخ العم توم التي رفعت راية تحرير العبيد في أمريكا.

وسأل عبد العزيز للمرة الثالثة:

- هل قرأتها في حفل الخطابة؟
- صوتي لا يُساعدني على إلقاء الخطب.

وأضفت بتفصيل موجز أنني سلَّمتها للخطيب المفوه عبد الغفار عوايص، وأُعجب بها أيّما إعجاب، وطلبتُ منه أن يقرأها شريطة ألّا يذكر

اسمي، وألّا يخبر الشيخ محموداً بأنني كاتبها، وللآن بعد كل السنوات التي تراكمت على أكتافي، لا أعرف السبب في إخفاء الخطبة عن أستاذي الشيخ محمود، أعز أستاذ في حياتي.

نظر ابن أستاذي إليَّ بدهشة، وسأل للمرة الرابعة:

- هل ألقاها عبد الغفار؟
- أجل ألقاها ونال موجة من التصفيق دامت بضع دقائق، وحين انتهى التصفيق وقف أستاذي الشيخ محمود مستوضحًا اسم كاتب الخطبة، فأخبره عبد الغفار بأنه وعد كاتبها بناء على طلبه ألّا يذكر اسمه.

استدار أستاذي حتى يراني، لأنني كنت جالسًا في الصفوف الخلفية، وقال موجهًا حديثه لي:

- قُم واقرأ خطبتك. أنت أولى من غيرك بقراءة ما يجود به يراعك.

ألقيتها عن ظهر قلب، ونلت تصفيقًا اهتزت القاعة بسببه، وصفق لي مدير المدرسة عبد الوهاب الخطيب وكلّ الأساتذة، وفاجأني أستاذي الشيخ محمود وهو يكيل المديح لي، وأنهى كلامه قائلًا:

- تلميذي موهوب، وهبه الله القدرة على نظم الشعر وكتابة النثر. درَّستُه في مدرسة البرج في حيفا، وشغفه في تثقيف نفسه لا حدّ له.

***

في صباح يوم من أيام المدرسة، شعرتُ بأن أقرب الأصدقاء لي، يوسف أبو عمر، يشعر بانزعاج من شيء أجهله. بيّنت له رغبتي في معرفة السبب الحقيقي لانزعاجه، ووضح لي الأمر في فترة الراحة ما بين حصتين، وتقاسمت معه الشعور بالانزعاج، لأن أستاذنا، قريبه، الشيخ محمودا قد قرر عدم التدريس في المدرسة، ويعد العدة للرحيل إلى المملكة العربية السعودية للحاق بشقيقه القائد الكبير أحمد ياسين الحمد.

دعاه والدي لتناول العشاء في بيتنا مع قريبه عبد السلام سلامة أبو عمر، قبل ثلاثة أيام من سفره.

وعند وداعه قال لوالدي بأنني موهوب بالكتابة، وقدَّم لي هدية عبارة عن كتاب لجورجي زيدان عن فتح الأندلس، وتمنى أن أكتب عن الحضارة الأندلسية في يوم من الأيام.

(31)

بعد ما يقرب من سبعين سنة، كتبت كتابًا في مجال أدب الرحلة عن حضارة العرب في الأندلس بعنوان «على دروب الأندلس». زرت مجموعة من المدن للحصول على المعلومات اللازمة لي لكتابته، وكنت أتخيَّل أستاذيَ الشيخ محموداً يتجول معي في تلك المدن، ورسمت له على شاشة ذاكرتي مجموعة من الصور، وظهرت صوره أكثر فأكثر في مدينة رُندة الجبلية التي تعانق الغيوم في امتدادها فوق الجبال الشاهقة، وتذكرتُ القصيدة التي سمعته يرددها كثيرًا في رثاء الأندلس للشاعر الأندلسي أبي البقاء الرُّندي، ومطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغَرّ بطيب العيش إنسانُ

هيَ الأمورُ كما شاهدتها دولٌ من سَرَّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمانُ

لشغفي بمعرفة كل ما يتعلق بتكريم الشعراء والأدباء وكبار القادة الذين يستحقون التكريم، رحت أتقصى هذا الجانب الذي يهمني كثيرًا، ووجدت أن الإسبان أقاموا نصبًا تذكارية كثيرة لمشاهير العرب بما فيهم عبد الرحمن الداخل، وأن مدينة رُندة أطلقت اسم شاعرها أبي البقاء الرندي على ساحة في وسط المدينة.

وقفت مطولًا عند مشهد رُندة الأندلسية، ولم أستطع مقاومة تأثري، عبَّرت عن ذلك بنبرة صوت مسموعة:

- أشعر بالسعادة لأنني حققت رغبة أستاذي في الكتابة عن الأندلس.

ردّ عليّ عبد العزيز:

- وأنا مثلك أشعر بالسعادة.

التفتُّ إليه وقلتُ:

- حدثتك بتوسعٍ عن كلّ ما أعرفه عن والدك في مسار حياته الماضية في حيفا وبُرقة، وأريدك أن تقدم لي لمحة موجزة عن مسار حياته في السعودية.

أطرق مفكرًا ثم قال:

- ودّع أهله في بُرقة، واتجه إلى الأردن، ومنه اتجه إلى شمال السعودية، ثم انتقل بحرًا من تبوك إلى جدة، ومنها إلى مكة، وبعد أدائه مناسك العمرة توجَّه إلى الرياض، والتقى بشقيقه القائد أحمد بعد فترة طويلة من السفر دامت عدة شهور.

وانخرط في استطراد آخر، بين فيه أنّ والده كان على علاقة متينة مع شقيقيه أحمد ومحمد، خاصة شقيقه أحمد الذي كان ملهمه، ويقتدي به في تجربته النضالية في فلسطين. وأشار في سياق حديثه إلى أنه بلقاء الأشقاء الثلاثة بالمملكة بدأت عائلة الحمد بالتكون والتوسع مع الأيام بازدياد عدد الأولاد والأحفاد والحفيدات والأسباط. وبقي القائد الكبير ملهمهم حتى وافاه الأجل المحتوم، وبقيت مشاهد الماضي من بُرقة تلاحقهم. وركّز محدثي على جوانب منتقاة متعلقة بالنساء اللواتي عشن

في بداية حياتهن في القرية، فقد واصلن بالمملكة استخدام كلمات تستعمل في بُرقة، خاصة لازمة «عزيين» التي تستخدم لتدلَّ على التعجب والاستفهام.

ضحك عبد العزيز، وأصغيت باهتمام واضح لمثال آخر عن حكايا البرقاويات في الرياض، ومفاد مثاله أنّ الجدة عائشة الحمد زوَّجت بناتها، وتعبت من مشاكلهن العادية مع أزواجهن، فنظمت الأرجوزة التالية:

نسب الدربي أوجع لي قلبي

ونسب الصنوبر أوبر! أوبر!

وضحك محدثي ثانية، واستغربت معه لاستخدام الجدة كلمة أوبر، قبل أن تستخدمها الشركة الأمريكية العالمية، وتساءل عبد العزيز:

- هل يحق لنا رفع دعوى على الشركة لأنها تعدت على اسم استخدمته الجدة قبل الشركة بزمن طويل؟

أجبته بجدية واضحة قائلًا:

- طبعًا يمكنكم إقامة دعوى في مجال حماية الملكية الفكرية.

***

عاد عبد العزيز للتحدث عن والده قائلًا:

- اهتمَّ والدي حال وصوله إلى الرياض بتلقي العلم، ورفع منسوب اكتسابه للمعرفة، وأكمل برامج تعليمية على أيدي مجموعة من كبار شيوخ مكة والرياض، وحصل على إجازة علمية تؤهله

لممارسة مهنة التدريس، ودار بعلمه معلمًا في أمكنة كثيرة، وهكذا انخرط في مجال التربية والتعليم، وفُتحت له أبواب النجاح على مصراعيها.

وما لبثت بعد ذلك أن سألته:

- ما هي إنجازاته في مجال التربية والتعليم؟

استرسل عبد العزيز بالتحدث عن إنجازات والده، واكتشفت أنه عمل معلمًا في بداية مسيرته في مدرسة السيح بالخرج، وفي مدرسة الدلم، وأسس المدرسة الفيصلية في مدينة عنزة، ثم تولى إدارة مدرسة الفيصلية الشهيرة بالرياض، كما تم تكليفه عضوًا في لجنة للإشراف على بعض الأمور في مدرسة مبرة الأمير طلال بن عبد العزيز لتعليم البنات في بداية تأسيسها. بعد ذلك عُيِّن مفتشًا فنيًّا في مركز تعليم نجد، وختم حياته الوظيفية في مركز المعلومات الإحصائية والتوثيق التربوي في وزارة المعارف.

أسمعني عبد العزيز هذه المعلومات وشعرت بسعادة لا حدّ لها، لأنّ أشرعة أستاذي الشيخ محمود قد ظللت كل منصات النجاح، واعتُبر من الشخصيات المهمة التي سرجت مصابيح العلم في المملكة العربية السعودية. وقد ذُكرت سيرته الذاتية في موسوعة «تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية في مائة عام»، المجلد السادس، صفحة 273. وبينت أنه من الأعلام الكبار الذين سكبوا رحيق علمهم في كلّ مكان.

والآن بعد مرور أعوامٍ وأعوام، أتخيله وهو يشدّ أحمال الحياة، ويبرق نظره عبر الفضاء، باحثًا عن كرمل حيفا وقبيبات بُرقة، ودبيب كلماته يسمعه آلاف التلاميذ الذين علمهم، وأنا منهم، وأعتز بفضله علي في سنيّ أيامي الباكرة.

قلتُ لعبد العزيز:

- أتخيله الآن كأنه يجلس معنا، بوجهه المشرق، ومحياه الباسم دومًا.

وبينما كنت أجمع شتات أفكاري، سألته:

- هل لك أن تحدثني عن نسله؛ أولاده وأحفاده وأسباطه.

وضع عبد العزيز يده على جبهته كأنَّه خطر له خاطر، ثم بعد قليل اتسع حديثه عن أسرته، وتبدى لي أنّ والده قد خلَّف ستة عشر ولدًا من البنين والبنات، كلهم حصلوا على شهادات جامعية عليا، أربعة من الأولاد وأربعة من الأحفاد تخصصوا في مجال الطبّ، وأكبر الأولاد المرحوم الدكتور عبد الرزاق تخصص في الطب النفسي، وله بحوث ودراسات كثيرة في مجال تخصصه، وكان أول رئيس لقسم الطب النفسي في كلية الطب بجامعة الملك سعود، كما كان ممتحِنًا لشهادات البورد السعودي والعربي، وظهر كثيرًا في برامجه التلفزيونية المتميزة حول توعية المواطنين بكل ما يتعلق بالطب النفسي.

دهشت لما سمعتهُ من عبد العزيز، ثم سألت:

- وماذا عنك؟

فأجابني:

- حصلت على درجة الدكتوراة بالهندسة المدنية، وكنت أستاذًا في جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل بالدمام، وأُحلت على التقاعد قبل فترة قصيرة.

لزمتُ الصمت، بينما استرسل عبد العزيز في ذكر إخوته، وبادرني الحديث عن أخيه ماجد الذي يهوى الأدب العربي، وبسببه ترك الدراسة في كلية الصيدلة بعد التحاقه بها ونجاحه في دراسته، وبدأ بعد ذلك دراسة اللغة العربية، وهو أستاذ لغويات في الوقت الحاضر في جامعة الملك سعود بالرياض.

توالى سرده عن إخوته، وبيّن لي أنّ ثلاثة منهم كما بيّن قبل قليل، أساتذة في جامعات سعودية مشهورة، وأربعة منهم أطباء وهم عبد الرزاق وجمال وزاهي وياسين.

بينما كنت أجمع شتات أفكاري التي كانت تتقافز في كل أرجاء قاعة الجلوس، برقت عينا عبد العزيز فجأة بريقًا غير عادي، وقال بحماسة واضحة بأنّ ثلاثة من إخوته يقرضون الشعر، ويكسون قصائدهم بأجمل القوافي، وبيّن لي أنّ جمالًا الطبيب الجالس بجانبي أحدهم. وفي الحال انتعشت أوصالي عندما تحدثت معه عن الشعر، وقرأت له قصيدة تعبر عن شعوري عندما زرت حيفا لأول مرة بعد النكبة بأكثر من نصف قرن،

بعدها قرأ لي قصيدة، نَشَرَتها له في ما بعد في صحيفة الرأي الأردنية، وانفعلتُ كثيرًا عند سماعها، فاعترتني هزةٌ مباغتة لأنها عن حال الشعر العربي، ومن أبياتها:

بكيـــتُ علـــى شـــعري فحـــنَّ لـــي الشـــعرُ
وقـــالَ: أفـــق.. لا الشـــعرُ يجـــدي ولا النثـــرُ
تغيَـــرت الأحـــوال واغتـــالَ شـــعرَنا
قصـــائد شـــعرٍ يعـــجُّ بهـــا العصـــرُ

(32)

حين سمعت القصيدة قلتُ لجمال:

- تغمرك موهبة الشعر بقدر كبير من حبّ اللغة العربية الجميلة، إنك كأبيك أستاذي الذي أَحبّ اللغة العربية ودافع عنها، منذ أن بدأ تعليمها في مدرسة البرج الحيفاوية.

لملمتُ كلمات كثيرة، عبرت بها عن إعجابي بقصيدة جمال، أغمضتُ عينيّ، وغرقت في لجة من التأملات. أمسكت ريشة لا تُرى ورسمتُ وجوهًا لأشخاصٍ من الماضي، ضمن منظومة خطوط طويلة، تمتد من الرياض إلى حيفا وبُرقة.

دهشتُ لما سمعته عن أبناء أولاد أستاذي الشيخ محمود، وتساءلت: «ماذا عن بناته؟».

فأجابني عبد العزيز بسعادة واضحة، موضحًا لي أنّ والده اهتمّ بتعليم بناته أيضًا، إذ سجلهن في البداية في مبرة الأمير طلال لفترة قصيرة، ثم سجلهن في مدارس التعليم العام لإكمال تعليمهن. وقد عملت ابنته الدكتورة منيرة أستاذة للغة العربية في جامعة الأميرة نورة، وخمس من بناته عملن في التدريس، وهن هدى ومنى وروضة وسناء وليلى، وتعمل ابنته رويدة حاليًّا في مجال المختبرات الطبية.

وبينما كنت مستغرقًا في تأملاتي في كلّ ما سمعته عن أبناء وبنات أستاذي، وجدت أمامي في تلك اللحظة أسامة، صاحب البيت الجديد. نظرتُ إليه مطولًا، ووجدت في وجهه طيف جده أستاذي الشيخ محمود، وقلتُ لوالده عبد العزيز ما أراه في وجه ابنه، واستبشر خيرًا بكلامي.

تمهلتُ بعض الوقت ثم تحدثت مع أسامة، وحرك في قلبي حرارة الشوق إلى بُرقة، التي سمع عنها من أحاديث جده وجدته ووالده وأعمامه وعماته. ولا أخفي أنني كنت في تلك اللحظة مترعًا بألف سؤال وسؤال، وتساءلت بصوت خفيض: «هل يُورَّثُ الوطن بالأحاديث، دون أن يَرى الأحفاد ترابه وصخوره وهضابه، ويتنسموا نسيمه صباح مساء».

طرحت سؤالي على أسامة، وأجابني بأنه يمكن التعرف على وطن الأجداد من أحاديث الكبار.

وقال والده عبد العزيز في تلك اللحظة:

- صدى كلام والدي عن بُرقة، سأسمعه دائمًا يؤزُّ في أذنيّ، حتى آخر لحظة في الحياة.

التفتُّ إلى محدثي، وقلتُ له:

- أنا سعيدٌ لهذا الكلام، لأنّ ما أكتبه من نثر وشعر لن يضيع مع الأيام، سيحفظه أحفادي، وسوف تتناثر كلماتي في الزمن القادم، مع أشعة الشمس الدافئة في كلّ أرجاء حيفا وبُرقة.

وبمزيد من السعادة، نظر إليَّ عبد العزيز قائلًا:

- ما تقوله في مطلق الأحوال هو الصواب.

نظرتُ حولي حالمًا، وقلتُ لابن أستاذي:

- كم أتمنى أن تُكرّم بُرقة القائد أحمد ياسين الحمد، وشقيقه المربي الكبير الشيخ محموداً الحمد الذي اعترفت بفضله المملكة العربية السعودية، بأن يقام نصبٌ للقائد أمام بوابة آل أبو عمر؛ عبارة عن قطعة رخام بيضاء، يُكتب عليها بخط جميل: «هنا وُلد القائد البرقاوي الكبير المرحوم أحمد ياسين الحمد أبو عمر».

وبالنسبة لأستاذي أحلم أن تُسمى مدرسة بُرقة باسمه، لأنه من أوائل الطلبة الذين درسوا فيها.

هزّ عبد العزيز رأسه، ثم ابتسم وقال لي بصوت واضح:

- أتمنى تحقيق اقتراحك بمزيد من السعادة.

خيَّم الصمت علينا بعض الوقت، ثم سألت وأنا أقتفي أشرعة الشقيقين في زمن مضى:

- كيف كانت علاقة الشيخ محمود بشقيقه القائد؟

فأجابني عبد العزيز قائلًا:

- كان ملهمه وأقرب فرد من أهله إلى قلبه، كانا يلتقيان دومًا ويتحدثان بلهفة عن بُرقة وأقربائهم آل أبو عمر، وكانا على علاقة متينة مع أقاربهم وأهل بُرقة الذين يقيمون في السعودية، يشدون أزرهم بمحبة لا تنضب.

تأثر كثيرًا عند وفاة شقيقه الأكبر، وظلت أصداء أحزانه تُلاحقه وتُسمع حتى بعد سنوات طويلة، عندما جاءه الأجل المحتوم في عام 2013.

انقضت لحظات وواصلت بعدها طرح أسئلتي، وتبيّن لي من أجوبة عبد العزيز أن والده كان يحرص على معرفة كل جديد في مسار قضيته الوطنية، وأنه التقى كثيرًا مع أشخاص من أهل الحل والعقد، منهم الحاج أمين الحسيني، والتقيا مرة في بيت فلسطيني وتناولا أكلة المسخن وكانت طافحة بأخطاء الطهو لأن صاحبة البيت ليست فلسطينية.

ثم أضاف: استشعر والدي بعض الراحة، عندما وافق جميع الحاضرين، بما فيهم المفتي، على قبول دعوته لتناول الغداء في بيتنا في اليوم التالي.

وأردف عبد العزيز قائلًا:

- أعدت أمي أكلة المسخن كما تعلَّمتها من أمها في بُرقة.

وبينما كان المدعوون يتناولون المسخن على أصوله، نظر المفتي إلى والدي، وهمس في أذنه بكلمات معدودة:

- هذا هو المسخن الأصلي يا شيخ.

أغمضت عيني، ثم قلتُ:

- هذا مثال عن علاقات والدك الاجتماعية في الرياض.

وأجابني:

- هناك أمثلة أخرى كثيرة على علاقاته الاجتماعية تغطي تفاصيلها مجلدات عديدة.

كان بها يريد أن يخفف من ثقل شوقه إلى أهله في بُرقة، وتخفّف من مجهودات أعصابه التي تدفعه دومًا نحو «راس الطبيب» وعين الدلبة، وعين الرشراش وعين الليمونة، والنسيم العليل الذي يهبُّ على قريته مع الندى في وقت الضحى.

سعدتُ أيّما سعادة لما ذكره عبد العزيز. أيقظت كلماته في داخلي ضجيج ذكريات كثيرة عن بُرقة وأهلها في الداخل والخارج، ورفعت من مدى خيالاتي لأحلِّق أبعد وأبعد في فضاءات بلادي.

***

توالت انفعالاتي، وفي لحظة نظرت حولي، فوجدت كل الضيوف قد غادروا قاعة الجلوس، ثم قلتُ لعبد العزيز بجدية واضحة:

- تشير عقارب ساعتي إلى الثانية صباحا، وقد غادر كل المدعوين، وأزفت ساعة الرحيل، إنه وقت النوم في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

وفي الحال أمسكت يده مودعًا، وودعت أيضًا جمالًا وابنه أسامة صاحب الدعوة، ثم صعدتُ إلى سيارة ابني واتجهنا إلى بيته في وقت شعرت فيه بعاطفة تغلي متأججة، لبدء كتابة رواية جديدة عن بطلين من أبطال بُرقة.

وبينما كنت متجهًا نحو الخارج، لحقني عبد العزيز وقال لي بصوت مرتفع:

- أمل أن تذكر في الرواية أن جدتي من أمي شفيقة تنحدر من قرية العطارة التي استشهد فيها رفيق عمي أحمد؛ القائد عبد الحميد المرداوي.

اختلط في تلك اللحظة ضجيج رصاص ثوار 1936 في أذنيّ المشوشتين، ونظرت إلى عبد العزيز قائلًا:

- أعدك أن أضع اسمها في المكان اللائق بها (ثم أضفت بنبرة تنضح بالحماسة): كانت أمسيتنا رائعة مشرقة، أملي أن نعيدها ثانية في بُرقة، على مقربة من عين الدلبة.

(33)

داهمني شعور بالانقباض عندما حان وقت مغادرتي الرياض، أخذ قلبي يخفق بشدة وأنا أودع أحفادي. أطرقت بعيني في أرض المطار حتى لا تُرى الدموع التي تترقرق في عيني، وبعد بضع دقائق أسندت ظهري إلى مقعد الطائرة، وأخذت أفكاري تسابق الرياح.

وبعد نحو ساعتين، وقفت منتصبًا على قدميّ أمام مطار عمّان، وشعرتُ أن البرد ما زال على أشده في شهر آذار، وسيطر عليّ الرعب من البرد لأنني لا أتحمله، وأهرب منه دومًا في الشتاء إلى أمكنة دافئة.

عُدتُ إلى عقلي الباطني عندما وصلت إلى بيتي، وقررت أنْ أستحثّ حاسوبي كي أكمل ما كتبته عن عظيمين من أبناء قريتي.

ذات يوم كانت السماء داكنة فيه، وينهمر المطر بشدة، تنقر قطراته في كل مكان في عمّان، التقيت بصديقين عزيزين هما: أيمن فتح الله، وابن الخال رضوان سيف. أوّلهما من أقرباء القائد البرقاوي الكبير أحمد ياسين الحمد وشقيقه أستاذي الشيخ محمود، ورضوان قريبهما بالمصاهرة لأنّ أم زوجته من دار خضير.

حسم أيمن أمره، وأخبرني أنّه على علاقة دائمة مع أقربائه آل الحمد في الرياض، يحافظ على تواصله الدائم معهم ويمدّهم بأخبار الأهل في بُرقة وعمّان، وهو شديد الصلة بعبد العزيز وإياد. وكان على تواصل أيضًا مع

قريبه القائد أحمد ياسين الحمد، عندما كان يزور عمّان، وروى لي عن فضائله الوطنية، وقدرته على استحضار ما يروق له من قصص عاشها إبان الثورة الكبرى.

نظر إليّ، وأخذ يصفه في أيام كبره قبل إصابته بالغرغرينا، وضع يده على جبهته، وظهر كأنه ينبش في ذاكرته، عن أحداث تتعلق بقريبه.

ركَّز عينيه في الفضاء البعيد الذي يلفُّنا، وقال جذلًا:

- وصل العم قائدنا ذات يوم لزيارة الأهل في عمّان، وطلب مني أن أزور معه بعض الأهل في الزرقاء، والتقيت به في يوم الزيارة وهو يرتدي رداءً أبيض، ويغطي رأسه بغترة وكوفية بيضاء دون عقال. هزّ رأسه بشكل غير ملحوظ، وأضاف قائلًا: أجهدتُ نفسي في النظر إلى ردائه الجميل، وعندما وصلنا إلى الزرقاء، سمعت بعض الناس يتهامسون ويشيرون إليه قائلين، هذا هو الممثّل العالمي أنطوني كوين، الذي مثَّل دور الثائر العربي عمر المختار.

قطعت حبل صمتي وتساءلت:

- هل كان يشبه عمر المختار إلى هذا الحدّ؟

ألحت عليه ذاكرته أن يقول:

- أجل، كان شديد الشبه به، كأنهما شخص واحد في تيه الحياة.

علَّق رضوان قائلًا:

- التقيتُ به مرتين عند أقاربه أنسبائي، مرة في الكويت ومرة أخرى في عمّان، وفي المرتين كان منهمكًا بالحديث عن مسيرته النضالية المتميزة في خلال مجرى الثورة الكبرى، كان لا يرفع من شأن نفسه في حديثه، بل يرفع من شأن رفاقه الشهداء الذين مزجوا دماءَهم الزكية بتراب الوطن.

أكّد لي رضوان أنّ القائد الكبير كان رجلًا طيب القلب نقي السريرة، عاشقا لبُرقة وأهلها، لهم كلهم بدون استثناء.

في تلك اللحظة، ردّد أيمن على مسمعنا، عبارات مفادها أن كل أقاربه في الرياض يعشقون بُرقة، ويتبرعون للمحتاجين من أهل قريتهم في كل المناسبات، وقد قدموا تبرعًا سخيًّا لديوان بُرقة في عمّان عند تأسيسه.

لم تبعدهم الدروب والغياب عن أهلهم وناسهم، واصلوا ضمّ بُرقة في عيونهم كما فعل من قبلهم آباؤهم وأجدادهم الذين كانت تبرق أنظارهم بدون استثناء إلى قريتهم، رغم المسافات الطويلة التي أبعدتهم عنها، واشتكى منهم الشوق إليها.

***

نظرتُ لهما، وقلتُ كم أتمنى أن تُكرم بُرقة القائد أحمد ياسين الحمد، وشقيقه المربي الكبير الشيخ محمود، بأن يقام نصبٌ للقائد أمام بوابة آل أبو عمر؛ عبارة عن قطعة رخام بيضاء، يُكتب عليها بخط جميل: هنا وُلد القائد البرقاوي الكبير المرحوم أحمد ياسين الحمد أبو عمر.

وبالنسبة لأستاذي أحلم أن تُسمى مدرسة بُرقة باسمه، لأنه من أوائل تلاميذها، الذين شهدوا أيامها الأولى، ولأنه كرمته المملكة العربية السعودية، واعتبرته من أهم الشخصيات في مجال التربية والتعليم في تاريخها الحديث.

أجابا بدفق من العاطفة، إنّهما يستحقان التكريم، للمّ شملهما بعد الموت في قريتهما، حتى لا يغيب ذكرهما في مسارب النسيان.

***

جَمدت الكلمات في سطوري، وتلاطم خفقها على أوراقي، وأردت في لهفة أن أرجع إلى مدرسة البرج في حيفا، لأخبر تلاميذها بأنني تلمستُ في الرياض خَلَف أستاذنا الشيخ محمود، الذي ترك أثره في عقول وروح كل تلميذ من تلاميذه. وفي لحظة تلاحقت وجوه تلاميذه على امتداد الأيام الماضية، وحملني الضوء الطليق إلى وادي النسناس في حيفا، واهتزَّ صوت هاتفي الجوال، وسمعتُ على الطرف الآخر صوت صديقي تلميذه الحيفاوي راشد الماضي. كان صوتهُ على الطرف الآخر، يُثقلُ الأثير بعاطفة يصعبُ وصفها، وفي الحال قُلتُ له:

- التقيتُ في الرياض بأولاد وأحفاد أستاذنا الشيخ محمود، وقد أعادوني إلى مناهل الإلهام، وها أنا أكتبُ عنه في زخمٍ من الكلمات أجولُ فيها ما بين حيفا وبُرقة والرياض وعمّان.

قال بصوت متهدج:

- امنحه في لجة حروفك قلوبنا.

أمسكَ أطراف الحديث من كل الجهات، ولعلع صوته بذكر تفاصيل ذكرياتنا الماضية مع أستاذنا، وفي لحظة طلب مني أن أرسم المسطرة في رحاب أوراقي، وكرّر كلامه مؤكدًا:

- المسطرة نفسها التي أهداها لك أستاذنا الشيخ محمود.

وعدته أن أذكرها، وأكدتُ له أنها ما زالت معي بين مقتنياتي التراثية في عمّان.

ماجت في عينيّ أيام حيفا الماضية، وردَّد صديقي بصوته البعيد، قبل أن ننهي المكالمة:

- لا تنسَ المسطرة كل ما فيها يمورُ بفيض ذكريات جميلة، تشدنا إلى كلّ ما مضى من حياتنا في الوطن.

انتهت المكالمة الهاتفية مع صديقي، وتركني وحدي، يموج في عينيّ بحر حيفا!

سميح مسعود

- شاعر وكاتب، وُلد في حيفا عام 1938.
- درس في مدرسة البرج الحيفاويّة حتى الصف الثالث الابتدائيّ، ثمّ هُجِّر مع عائلته عام 1948 إلى بُرقة التي تنحدر منها عائلته، وبعد أن أنهى دراسته الثانويّة، دَرَس في جامعتَي «سراييفو» و«بلغراد» في يوغوسلافيا، وحصل في عام 1967 على درجة الدكتوراة في الاقتصاد من جامعة بلغراد.
- عمل مستشارًا اقتصاديًّا في ثلاث مؤسسات إقليميّة عربيّة، تتّخذ من الكويت مقرًّا لها.
- انتُخب في عام 1990 رئيسًا للاتحاد العام للاقتصاديّين الفلسطينيّين- فرع الكويت.
- عضو رابطة الكتّاب الأردنيّين، والاتحاد العام للكتّاب والأدباء العرب.
- يعمل مديرًا للمركز الكنديّ لدراسات الشرق الأوسط في مونتريال/ كندا، ورئيسًا للصالون الثقافيّ الأندلسيّ في مونتريال التابع للمركز نفسه.
- صدر له سبعة وأربعون كتابًا:

منها أربعة وعشرون كتابًا في مجال الشعر والأدب، منها:

- «الوجه الآخر للأيام» ديوان شعر، صدرت طبعته الأولى عن دار فضاءات للنشر والتوزيع، والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان، 2011، وصدرت طبعته الثانية عن الصالون الثقافيّ الأندلسيّ، ودار الوسام العربيّ وجمعيّة شروق الثقافيّة، ولاية باتنة، الجزائر، 2016.
- «رؤى وتأملات» نصوص نثريّة، دار فضاءات للنشر والتوزيع، والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان، 2012.
- «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور» (الجزء الأول)، صدرت طبعته الأولى عن دار الفارابي، بيروت، 2013، وطبعته الثانية عن دار راية للنشر، حيفا، 2014، وتمّ إشهاره في مسقط رأس المؤلف في حيفا على مقربة من مدرسة البرج التي بدأ فيها مسيرته التعليميّة، وصدر باللغة الإنجليزيّة (ترجمة الشاعر والروائي بسام أبو غزالة) عن دار إنر تشايلد برس الأميركيّة عام 2016.
- «حيفا وقصائد أخرى» مجموعة شعريّة، صدرت طبعتها الأولى عن رابطة الكتاب الأردنيّين والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، باللغتَين العربيّة والإنجليزيّة (ترجمة الشاعر نزار سرطاوي)، عمّان، 2014، وطبعتها الثانية عن المؤسستين نفسيهما في عام 2016، وصدر باللغة الإنجليزيّة، عن دار إنر تشايلد برس الأميركيّة عام 2016.

- «متحف الذاكرة الحيفاويّة»، الآن ناشرون وموزعون والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان، 2014، وتمّ إشهاره في نادي حيفا الثقافيّ/ حيفا.
- «مقامات تراثيّة»، الآن ناشرون وموزعون والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان، 2015. وتمّ إشهاره في نادي حيفا الثقافيّ/ حيفا.
- «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور» (الجزء الثاني)، صدرت طبعته الأولى عن دار الجندي للنشر والتوزيع، القدس 2015، وطبعته الثانية عن الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2015، وتمّ إشهاره في مركز محمود درويش الثقافيّ في الناصرة، وفي مجلس قروي بُرقة، وفي مقرّ رابطة الكتاب الأردنيّين في عمّان.
- «حيفا.. برقة.. البحث عن الجذور» (الجزء الثالث)، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2017، وتمَّ إشهاره في معرض بيروت الدوليّ للكتاب، 2017، ومعرض الدار البيضاء الدوليّ للكتاب، 2017، وفي نادي إكسال الثقافيّ، 2017.
- «تطوان وحكايا أخرى»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان، 2017، وتمَّ إشهاره في معرض الشارقة الدوليّ للكتاب، 2017.
- «حصاد السنين.. مذكّرات ما بعد التقاعد»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان، 2018.

- Haifa and Other Poems, Inner Child Press, USA 2016, Translated and Edited by Nizar Sartawi.
- Haifa Burqa.. A Search for Roots, Inner Child Press, USA 2016 Translated from Arabic by Bassam S. Abu-Gazalah.
- Haifa Burqa.. A Search for Roots, Inner Child Press, Volume II, USA 2017 Translated from Arabic by Bassam S. Abu-Gazalah
- Haifa Burqa.. A Search for Roots, Inner Child Press, Volume III, USA 2018 Translated from Arabic by Bassam S. Abu-Gazalah.

- «على دروب الأندلس»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان، 2019.
- «على مدارج السحاب»، شعر، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان، 2020.
- «أنطونيو التلحمي رفيق تشي جيفارا»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان، 2020.
- Antonio of Bethlehem, Inner child Press, USA, Transleted from Arabic By Bassam S. Abu Gazalah, 2021.
- «هوشيلاجا»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2020.
- «الكرملي»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2021.

- «ذات القبعة الحمراء»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2021.
- «صنهاجي في غرناطة»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2022.
- «المنسي»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2022.

وصدر له في مجال اختصاصه العلميّ عشرون كتابًا في مختلَف المجالات الاقتصاديّة باللغتَين العربيّة والإنجليزيّة، منها:

- Public Joint Ventures in Developing Countries, Organization, Management and Critical Issues, (joint publication) United Nations, New York 1988.
- «الموسوعة الاقتصاديّة» (جزآن)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان/ رام الله، 2008.
- كتاب بعنوان «قضايا اقتصاديّة عربيّة»، دار الشروق للنشر والتوزيع، والصالون الثقافيّ الأندلسيّ عمّان/ رام الله، 2009.
- كتاب بعنوان «الأزمة الماليّة العالميّة، نهاية الليبراليّة المتوحِّشة»، دار الشروق للنشر والتوزيع والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان/ رام الله، 2011.

- كرّاس بعنوان «التنمية العربيّة في ظلّ الربيع العربيّ» ضمن سلسلة كرّاس (الرأي) الاستراتيجيّ، مركز (الرأي) للدراسات، عمّان، 2014.
- نشر العديد من المقالات الاقتصاديّة في مجلّات وصحف في الدول العربيّة وكندا، منها جريدة الحياة اللندنيّة، ومجلّة «النفط والتعاون العربيّ» مجلّة فصليّة محكّمة تصدرها منظمة الأقطار العربيّة المصدّرة للنفط، ومجلّة «المستقبل العربيّ» مجلة شهريّة محكّمة يصدرها مركز دراسات الوحدة العربيّة.
- نشر العديد من المقالات الأدبيّة في مجلات وصحف في الدول العربيّة وكندا، وينشر مقالاته في الوقت الحاليّ في الملحق الثقافيّ لصحيفة «الرأي» الأردنيّة، والملحق الثقافيّ لصحيفة «الاتحاد» العربيّة الحيفاويّة.

• البريد الإلكترونيّ: Smasoud38@hotmail.com